الخواطر السانحة فى بلاغة
سورة الفاتحة

تأليف
أ.د/ عبد الحميد هنداوى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن
بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

تقديم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وبعد،،،، فهذه ورقات جمعتها تتعلق ببلاغة سورة الفاتحة، رأيت أن فيها نفعاً وفائدة لطلاب العلم والدراسات البلاغية والقرآنية فعجلت بطباعتها، عسى أن يحفزني ذلك في إخراج الجزء الثاني المتعلق بها في استجلاء بلاغة هذه السورة وأساليبها على جميع مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والبيانية.

والله تعالى أسأل أن يوفقنا لخدمة كتابه، وأن ينفع به طلابه، فهو مولى ذلك والقادر عليه.

أ.د/ عبد الحميد هنداوى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
الأدبي والأدب المقارن
بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

سورة الفاتحة

مكية وهي سبع آيات

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

فضلها وأسماؤها:

روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، يقولها ثلاثًا -وفي رواية: فهي خداج، ثلاثا غيرُ تمام- فقيل لأبي هريرة: إنا نكونُ وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك: فإني سمعتُ رسول ﷺ يقول: قال الله ﷻ: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل -وفي رواية: فنصفها لي، ونصفها لعبدي- فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] قال الله: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] قال مجّدني عبدي -وقال مرّة: فوّض إليّ عبدي- وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل». أخرجه مسلم والموطأ والترمذي والنسائي.

وفي رواية الترمذي وأبي داود، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأُمّ القرآن فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج، غيرُ تمام.

قال أبو السائب -مولى هشام بن زهرة- قال: يا أبا هريرة، إني أحيانا أكون وراء الإمام؟ قال: فغمز ذراعي، ثم قال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي. . .» وساق نحو ما تقدّم، وقال في آخرها: «هذا لعبْدي، ولعبدي ما سأل».

وفي أخرى لأبي داود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«اُخرُج، فناد في المدينة: إنه لا صلاة إلا بقرآن، ولو بفاتحة الكتاب فما زاد»**. . .

وفي رواية للترمذي ولأبي داود: «أمرني أن أُنادي: لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب»، زاد أبو داود: «فما زاد».

وفي رواية ذكرها رزين: أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة إلا بقراءة، فما أعْلن رسولُ الله ﷺ أعْلنّاه لكم، وما أخفى أخفيْناه لكم، فقال له رجل: أرأيت يا أبا هريرة إن لم أزد على أم القرآن؟ فقال: قد سُئل عن ذلك رسولُ الله ﷺ؟ فقال: **إن انتهيت إليها أجزأتك، وإن زدْت عليها فهو خير وأفضل**»[1].

عن أم سلمة، قالت: كان النبي ﷺ «يقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: الآية ٢] يقطعها حرفًا حرفًا»[2]. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»** ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله عليه السلام عن ربه: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي»**. . . الحديث. فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها.

---

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول - (٥/ ٣٤٢٤).
(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم - (٢/ ٣٦٥).

ويقال لها: الشفاء؛ لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعا: «**فاتحة الكتاب شفاء من كل سم**». ويقال لها: الرقية؛ لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «**وما يدريك أنها رقية؟**»[١].

روى البخاري في فضائل القرآن عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نفرنا غُيّب، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنُه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبنا، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقي؟ قال: لا ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئا حتى نأتي، أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «**وما كان يُدْريه أنها رقية، أقسموا واضربوا لي بسهم**»[٢].

أسماؤها:

«يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطا، وبها تفتتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضًا: أم الكتاب عند الجمهور، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم**».

ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله عليه السلام عن ربه: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي**»... الحديث، فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها.

ويقال لها: الشفاء؛ لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعًا: «**فاتحة الكتاب**

---

(١) تفسير ابن كثير - (١/ ١٠١).
(٢) تفسير ابن كثير - (١/ ١٠٦).

شفاء من كل سم». ويقال لها: الرقية؛ لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟».

وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: الآية ١]، وسماها سفيان بن عيينة: الواقية. وسماها يحيى بن أبي كثير: الكافية؛ لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضا عنها»[1].

ويقال لها: سورة الصلاة والكنز ذكرهما الزمخشري في كشافه.

وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: الآية ٨٧]، (وسورة الحجر مكية) والسبع المثاني هي الفاتحة للحديث السابق، والله أعلم.

قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب، أنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته.

قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر -إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع- أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ، أمّ الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أُمًّا، واستشهد بقول ذي الرمة:

على رأسه أم لنا نقتدي بها ... جماع أمور ليس نعصي لها أمرا

---

(١) المسند (٢/ ٢٨٤) وصحيح مسلم برقم (٧٨٠) وسنن الترمذي برقم (٢٨٧٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠١٥).

يعني: الرمح. قال: وسميت مكة: أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها.

ويقال لها أيضًا: الفاتحة؛ لأنها تفتتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة، وإن كان للمثاني معنى آخر غير هذا، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

وهي سبع آيات بلا خلاف (وذلك للحديث السابق)، وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القرّاء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال»[1].

(١) تفسير ابن كثير - (١/ ١٠١).

١- سورة الفاتحة

خطبة ومقدمة تكشف عن مقاصد الكتاب الكريم

هذه السورة الكريمة تسمى فاتحة الكتاب؛ لأنها تقع في أول الكتاب في مفتتح المصحف الشريف، وفي الصفحة الأولى منه، شأنها في ذلك شأن خطبة المصنف التي يفتتح بها كتابه ويأتي بها في أوله ليكشف عن مقاصده ومحتواه؛ فيبين ما يشتمل عليه هذا الكتاب على سبيل الإجمال، وهذا هو شأن هذه السورة الكريمة؛ ولذلك فقد وقعت في افتتاح هذا الكتاب الكريم.

قال ابن كثير: «يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطا، وبها تفتتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضا: أم الكتاب عند الجمهور، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم**».

فهي يقال لها الفاتحة لأنها (فاتحة الكتاب خطا) كما قال ابن كثير، وهي يقال لها أيضًا: أم الكتاب عند الجمهور، كما ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي، وإنما سميت بأم الكتاب وأم القرآن لأنها أصله الذي يرجع القرآن إليه؛ وذلك لأن أصول القرآن كلها موجودة في الفاتحة كما سنبين بمشيئة الله تعالى.

قال الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وهذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن كما علمت آنفا وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال».

قال ابن كثير: «قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا».

قلت فإذا صح هذا التعداد كان ذلك نوعا من الإعجاز العددي؛ حيث تشير السورة بحروفها إلى باقي سور القرآن وهي (١١٣)، وهي كلها متضمنة في هذه السورة. وهو ما نحاول بيانه الآن ببيان ما تتضمنه هذه السورة من معاني القرآن ومقاصده على سبيل الإجمال.

قال الطوفي في «إيضاح البيان عن معنى أم القرآن»:

«أما لفظُ (الأمّ): فيُقالُ: هي أصلُ الشّيء، فمنهُ:

- أمُّ الإنسان؛ لأنها: أصلُهُ الذي خرج منهُ.

- ومكّةُ أمُّ القُرى؛ لأنها أصلُ القُرى؛ لما ذُكر من أنّها دُحيت من تحتها.

فيقالُ: إنّ الأرض كانت رابيةً حيثُ هي مكّة، ثم بُسطت من هناك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ [النّازعات: الآية ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ [الذّاريات: الآية ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩﴾ [نوح: الآية ١٩] وأشباه ذلك.

- ويقالُ: للأرض أمّ البشر؛ لأنها أصله، ومنها خُلق. ومنها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾ [نوح: الآية ١٧]، وقوله: *!*﴿ذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين﴾.

- وفي شعر بني أُميّة:

والأرْضُ منْشأُنا وكانتْ أُمّنا منْها حقيقتُنا، وفيها نُولدُ

- وكذا: قولُه تبارك وتعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩﴾ [القارعة: الآية ٩] أي:

١- يلازمُ الهاوية ملازمة الطّفل أمّهُ التي هي أصلُه.

٢- وقيل: هذا من قولهم: هوتْ أمُّهُ. دعاءً عليه.

٣- ولعلّ أصلُهُ: أنْ ينتكّس على أمّ رأسه.

- ويقولُ النُّحاةُ: (إنْ الشّرْطيّة) هي أمُّ الباب، و(إلاّ) أمُّ الباب في الاستثناء. يعنون بذلك: أصلهُ الذي هو أكثرُ دورانًا.

- وكذلك: رُوميه أم الروم، أي: أصلُ بلادها التي ترجعُ إليها وتعتمدُ عليها.

- ومنها: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزخرف: الآية ٤]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ٣٩] يعني: أصله الذي نُقل منه، وهو: اللّوحُ المحفوظُ.

* ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧] يُستعملُ بمعنيين:

أحدُهما: هذا -لما ذُكر-.

والثّاني: الفاتحةُ لما نذكرُ -إنْ شاء الله ﷻ- من أنّها متضمّنة لكُلّيات القرآن إجمالًا.

* [لفظُ (القُرآن)]:

وأما (القرآن) فالمراد به: الكلامُ الإلهيّ الجامع النّازل على محمدٍ ﷺ.

مُشتقٌّ منْ: (القرْء)؛ وهو: الجمْعُ؛ لجمعه ما ذكرنا.

ومادّةُ (قرأ) إلى هذا ترجعُ.

فإذا علمت هذا فاعلم أن الفاتحة هي أم القرآن، أي أصله الذي يرجع إليه؛ وذلك ببيان ما اشتمل عليه القرآن على سبيل الإجمال، ثم جاءت سور القرآن فبينت ما اشتملت عليه الفاتحة على سبيل التفصيل؛ وذلك أن الكلام نوعان:

١- مجمل.

٢- مفصل مبين.

قال الطوفي:

«اعلم أن الكلام -من حيث هو- على ضربين:

الضّربُ الأوّل: مجملٌ.

الضّربُ الثّاني: ومبيّنٌ مفصّلٌ.

والضّربان مُتفاوتان في المراتب:

فبعضُ المجمل أشدّ إجمالًا من بعض، وبعضُ المبيّن أشدّ بيانًا من بعض؛ حتى: ينتهي (المجملُ) إلى غاية الإجمال. و(المبيّن) إلى غاية البيان.

وسببُ الإجمال:

- تارةً: قُصورُ المتكلّم عن البيان.

- وتارةً: قُوّةُ إدراك السّامع بحيثُ يُفهم بأدنى إشارةٍ، فيتّكلُ المتكلّم على ذلك، فيُقتصرُ على الإجمال.

- وتارةً الأمران: قصورُ المتكلّم وقوّةُ السّامع، فلا يُبالي المتكلّم [إنْ] كان قاصرًا عن البيان أو قادرًا عليه.

- وتارةً: تعلّقُ المصلحة بالإجمال من: إخفاء سرٍّ، أو: امتحان سامعٍ بإدراك معنى خفيٍّ... وغير ذلك من الأسباب.

وسببُ البيان:

- تارةً: فصاحةُ المتكلّم وبلاغتُه.

- وتارةً: ضعفُ فهم السّامع، فيحرُصُ المتكلّمُ على إفهامه.

- وتارةً: الأمران جميعًا.

- وتارةً: اهتمامُ المتكلّم بمعنى الكلام؛ فيحرصُ على إظهاره في بعض مراتب البيان... وغيرُ ذلك من الأسباب.

ومن أمثلة تفاوت مراتب البيان:

[المثالُ الأوّل]: قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧]... إلى آخر الآيات.

فإنه عز وجل:

١- أمرهم أولًا بذبح بقرة، وهو مسّمى مطلق في غاية الإجمال.

٢- ثم: بيّن لهم أنّها ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨].

٣- ثم: بيّن لهم أنّها ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٩]

٤- ثم: بيّن أنّها ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] فكان ذلك غاية البيان لهم، فحينئذ قالوا: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١].

[المثالُ الثّاني]: ومن أمثلة ذلك أن الله ﷻ بيّن (مواقيت الصلاة) في كتابه بقوله ﷻ:

١- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٧]... الآية.

٢- ثم بقوله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

٣: ثم بقوله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: الآية ٣٩]... ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: الآية ١٣٠]... الآيتين.

٤- وبقوله ﷻ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] ... الآيات.

وهي متفاوتة في البيان على ترتيبها الذي ذكرناه.

٥- ثم جاءت (السُّنة) في رتبةٍ ثانيةٍ من البيان، كحديث: ابن عباس[١] وجابر[٢] وبريدة[٣] ﷺ وغير هذا.

---

(١) حديثُ ابن عبَّاس ﷺ: أخرَجَهُ: أبو داود (رَقْم: ٣٩٣) والترمذي (رَقْم: ١٤٩) وأحمد ١/ ٣٣٣ و٣٥٤ وعبد الرزاق (رَقْم: ٢٠٢٨) وعبد بن حميد (رَقْم: ٧٠٣) وأبو يَعلى (رَقْم: ٢٧٥٠) وابن خُزيمة (رَقْم: ٣٢٥) وابن الجارود (رَقْم: ١٤٩ و١٥٠) والطَّحاوي في (شَرح المعاني) ١/ ١٤٦ - ١٤٧ والطَّبراني (رَقْم: ١٠٧٥٢ و١٠٧٥٣) والدَّارقطني ١/ ٢٥٨ والحاكم ١/ ١٩٣ والبيهقي ١/ ٣٦٥ - ٣٦٦ والبَغوي في (شَرح السنة) (رَقْم: ٣٤٨). وصحَّحه: ابن خزيمة والحاكم والألباني.

(٢) حديثُ جابر ﷺ: أخرَجَهُ البُخاري (رَقْم: ٥٦٠) ومُسلم (رَقْم: ٦٤٦) وأبو داود (رَقْم: ٣٩٧) والنسائي (رَقْم: ٥٢٦) والدارمي (رَقْم: ١١٨٤).

(٣) حديثُ بريدة ﷺ: أخرَجَهُ مُسلم (رَقْم: ٦١٣) والترمذي (رَقْم: ١٥٢) والنسائي (رَقْم: ٥١٨) وابن ماجه (رَقْم: ٦٦٧) وابن خزيمة (رَقْم: ٣٢٣ - ٣٢٤) وابن حبان (رَقْم: ١٤٩٢) وابن الجارود (رَقْم: ١٥١) والدارقطني ١/ ٢٦٢ والبيهقي ١/ ٣٧١ .

وحديثُ أبي مَسعود الأنصاري ﷺ: أخرَجَهُ البُخاري (رَقْم: ٥٢١ و٣٢٢١ و٤٠٠٧) ومُسلم (رَقْم: ٦١٠) وأبو داود (رَقْم: ٣٩٤) والنسائي (رَقْم: ٤٩٣) وابن ماجه (رَقْم: ٦٦٨) والدارمي (رَقْم: ١١٨٥).

وحديثُ أبي بَرزَة الأسلمي ﷺ: أخرَجَهُ البُخاري (رَقْم: ٥٤٧ (٥٤١، ومُسلم (رَقْم: ٤٦١ و٦٤٧) وأبو داود (رَقْم: ٣٩٨ و٤٨٤٩) والترمذي (رَقْم: ١٦٨) والنَّسائي (رَقْم: ٤٩٤ و٥٢٤ و٥٢٩ و٩٤٧) وابن ماجه (رَقْم: ٦٧٤ و٧٠١ و٨١٨) والدارمي (رَقْم: ١٣٠٠ و١٤٢٩)

وحديث عِبد الله بن عَمرو بن العاص ﷺ: أخرَجَهُ مُسلم (رَقْم: ٦١٢) وأبو داود (رَقْم: ٣٩٦) والنسائي (رَقْم: ٥٢١).

وحديث أبي موسى الأشعري ﷺ: أخرَجَهُ مسلم (رَقْم: ٦١٤) وأبو داود (رَقْم: ٣٩٥) والنسائي (رَقْم: ٥٢٢). =

٦- ثمّ جاء (كلامُ الفقهاء) في رُتبةٍ ثالثةٍ من البيان، فهي في غايته.

ثم إنّ كتب الفقهاء مُتفاوتةٌ في البيان، فبعضُها أبْينُ في ذلك من بعضٍ، ولكنّ جُملتُها بلغت غاية البيان.

[المثالُ الثّالث]:

ومن أمثلة ذلك قولُ الله ﷻ: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يُوسُف: الآية ٧] في سياق السُّورة[(١)].

وكذلك قصصُ جماعةٍ من الأمم مع أنبيائها: أجْملها اللهُ ﷻ في مكانٍ كـ (سُورة الذّاريات) وبيّنها في مكانٍ آخر كـ (سورة الأعراف والشعراء وهود)[(٢)].

= وحديثُ أبي هُريرة ﷺ: أخرَجَهُ التِّرمذي (رَقْم: ١٥١) وأحمد ٢/ ٢٣٢ والطّحاوي في (شَرح المعاني) ١/ ١٤٩ - ١٥٠ والدارقطني ١/ ٢٦٢ والبيهقي ١/ ٣٧٥ وصححه الألباني في السلسلة الصّحيحة (رَقْم: ١٦٩٦).

وانظر: ابن أبي حاتم في العلل (رَقْم: ٢٧٣) والعلل الكبير للترمذي (رَقْم: ٨٢). ورِواية أُخرى عنه: أخرجها النَّسائيّ (رَقْم: ٥٠١).

وحديث أنسٍ ﷺ: أخرَجَهُ: النَّسائي (رَقْم: ٥٥١).

(١) أُنْظُرْ: قِصّة يُوسف في (القَصص القرآني: عرضُ وَقائعٍ وتحليلُ أحداثٍ) للشيخ صلاح الخالدي ٢/ ٧٣-٢٥٦. وقصّة يوسف عليه السلام وردت كاملة في سورة يوسف.

(٢) [مِنَ القَصَصِ التي جاءَت مُجملَة في الذّارِيات ثُمّ فُصِّلَت في سُوَرِ: الأعرافِ وهود والشّعراء:

١- قِصّة إبراهيمُ عليه السلام: الذّاريات ٢٤ - ٣٧، الأعراف ٦٩ - ٧٦، الشعراء ٦٩- ٨٩.

٢- قِصّة موسى عليه السلام: الذّاريات ٣٨ - ٤٠، الأعراف ١٠٣ - ١٧١، هود ٩٦ - ٩٩، الشعراء ١٠ - ٦٧.

٣- قِصّة هود عليه السلام: الذّاريات ٤١ - ٤٤، الأعراف ٦٥ - ٧٢، هود ٥٠-٦٠، الشعراء ١٢٣- ١٣٩.

٤- قصّة صالح عليه السلام: الذّاريات ٤٣ - ٤٥، الأعراف ٧٣-٧٩، هود ٦١-٦٨، الشعراء ١٤١ - ١٥٨.

٥- قِصّة نُوح عليه السلام: الذّاريات ٤٦، الأعراف ٥٩ - ٦٤، هود ٢٥ - ٤٨، الشّعراء ١٠٥ - ١٢١] بتَوّاب.

وبعضُها أبْينُ منْ بعضٍ بيَانًا مُطلقًا، أو من وجهٍ. ولهذا: يُستفادُ ذلك منْ بعضُ السُّور ما لا يُستفادُ من بعضٍ.

ثُمّ استقصى القُصّاصُ بيان ذلك؛ مثل: وهب[١]، والكسائي[٢]، والثّعلبي[٣]. وأجودُها كتابُ وثيمة بن موسى بن الفرات، وأبلغُ من ذلك بيانًا: مُعاينةُ قصصهم لمن عاينها عند وُقوعها.

وإذا نظرت في كتابنا المسّمى بـ (الرّياض النّواظر في الأشباه والنّظائر) لاحت لك بارقةٌ كبيرةٌ من البيان ومراتبه إنْ شاء اللهُ ﷻ.

[مراتبُ القُرآن]:

إذا عرفت ما قدّمناهُ من مراتبٍ؛ فاعلمْ:

أنّ (القُرآن) في مراتب بيانه على ذلك:

١- فـ (الفاتحةُ) التي هي (أُمُّ القرآن) مشتملة على مقاصده الكُلّيّة من حيث الإجمال، ثم باقي القُرآن يُبيّن ذلك في رُتبةٍ ثانيةٍ من البيان.

٢- ثم السّنّة بيّنته في رُتبة ثالثةٍ من البيان؛ لأنّها بيانُ القرآن؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٤٤].

٣- ثم (العيان) في الدّنيا والآخرة بيّنه في رتبةٍ رابعةٍ، وهي غايةُ البيان، إذْ لا أبين من العيان، وإليه الإشارةُ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٤٤]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٨]، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٧]،

---

(١) وَهَبُ بنُ مُنَبِّه: عُرِفَ بالقَصَصِ والاسرائِيليّات [سَيرُ أعلامِ النّبلاءِ ٤/ ٥٤٤].
(٢) محمّد بنُ عَبدِ اللهِ؛ له كِتابُ (بَدءِ الخَلقِ) و(قَصَصِ الأنبياءِ).
(٣) أحمدُ بنُ محمد بن إبراهيم الثّعلبي؛ له كتابُ (التّفسيرِ) و(قَصَص الأنبياء).

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يس: الآية ٦٣]، ﴿هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ [الأنعام: الآية ٣٠]. . . الآياتُ ونحوها.

* ولنشرحُ ذلك على وجهٍ يظهرُ، وذلك من وُجُوهٍ:

الوجهُ الأوّل: أنّ القُرآن مشتملٌ على مقاصد الإيمان؛ وهي: التّصديقُ بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، كما ثبت ذلك في حديث جبريل في الحديث الصّحيح[1].

وهذا هو مقصودُ القرآن بالذّات، ولذلك سمّى (إيمانًا) في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: الآية ٥] يعني: بالقُرآن فيما قاله بعضُهُم.

وهذه المقاصد كلها مشارٌ إليها في الفاتحة[2].

وهذا القول قد ذهب إلى أن القرآن كله في التوحيد على الحقيقة، يقول الإمام

---

(١) أخرَجَهُ البُخاري (رَقْم: ٥٠ و٤٧٧٧) ومسلم (رَقْم: ٨ و٩ و١٠).
ولَفظُ مُسلِم (رَقْم: ١٠): عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَلُونِي» فَهَابُوهُ أَنْ يَسْأَلُوهُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَجَلَسَ عِنْدَ رُكْبَتَيْهِ . فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «لاَ تُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ» . قَالَ صَدَقْتَ . قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ» . قَالَ صَدَقْتَ . قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» . قَالَ صَدَقْتَ . قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا رَأَيْتَ الْمَرْأَةَ تَلِدُ رَبَّهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبُهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ مِنَ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ» . ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ قَالَ: ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُدُّوهُ عَلَيَّ» فَالْتُمِسَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا») [تحفة ١٤٩١٥ - ٧/١٠].

(٢) إيضاح البيان ص ١٧ - تحقيق د/ على البواب - مكتبة الثقافة الدينية.

ابن القيم رحمه الله تعالى: «بل نقول قولًا كليًا: إنّ كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وأما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وأما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره. فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وأما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده وأما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال. وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد»[1].

قلت فالإيمان بالله تعالى وما يتفرع عليه من توحيده في أسمائه وصفاته وربوبيته سبحانه واضح تمام الوضوح في إثبات الحمد له سبحانه على وجه الاستحقاق مسندا لأعظم أسمائه وصفاته التي هي أعلام عليه على الحقيقة، فلا يقال: (الله) إلا له سبحانه، وكذلك لا يقال: (الرب) على الإطلاق إلا له سبحانه، كما لا يقال (الرحمن) إلا له كذلك، وزاد على ذلك: (الرحيم) لاختصاص المؤمنين برحمة خاصة في الآخرة، أما (الرحمن) فهو دال على اتساع رحمته في الدنيا لخلقه جميعا مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم، حتى يشمل كل دابة في الأرض، وطائر في السماء، وزاد مالك يوم الدين، أو ملك يوم الدين، لأن الملك والمالك علمان مختص بهما سبحانه في ذلك اليوم، يوم ينادي فيقول: «لمن الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟» فيجيب نفسه سبحانه: «﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨]».

فاشتملت السورة على ست أسماء لله تعالى: ثلاثة منها هي أعلام عليه في الدنيا، وهي (الله، والرب، والرحمن) وثلاثة هي أعلام عليه في الآخرة، وهي: (الرحيم، والملك والمالك).

---

(١) مدارج السالكين للإمام ابن القيم ٣ / ٤٥٠ .

وكما أن (الرحمن) تدل على معنى ليس في (الرحيم)، فكذلك (ملك) و(مالك) يدل كل واحد منهما على معنى ليس في الآخر؛ فالملك يدل على اختصاصه بالحكم؛ فهو الحاكم القاضي وحده في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: الآية ٤١] وهذا في الدنيا والآخرة، واختصاصه به في الآخرة أوضح من أن يدلل عليه.

أما اسمه (المالك) فلاختصاصه في ذلك اليوم بتمام المالكية، فلا يملك أحد من عباده معه مثقال ذرة في ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: الآية ٤٨].

وعلى الجملة فهو سبحانه الملك والمالك على الحقيقة وحده في الدنيا والآخرة، ولا يوصف أحد بذلك في الدنيا على الحقيقة بل لا يوصف بذلك إلا مجازًا، أما في الآخرة فاختصاصه بذلك أوضح ما يكون.

قال ابن كثير: «والملك في الحقيقة هو الله ﷻ؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: الآية ٢٣] وفي الصحيحين عن

أبي هريرة ﷺ مرفوعًا أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله، وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»، وفي القرآن العظيم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية ١٦]، فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: الآية ٧٩] ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: الآية ٢٠]، وفي الصحيحين: (**مثل الملوك على الأسرة**).

والإيمان بالله تعالى ينقسم إلى:

١- **إيمان بربوبيته سبحانه**: ويشمل ذلك: الإيمان بأسمائه وصفاته وتنزيهه فيها عن الشبيه والنظير، وهو ما يسمى بتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، أو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، أو توحيد المعرفة والإثبات.

٢- **إيمان بعبوديته**: ويقصد به: الإيمان بوجوب عبادته بما شرعه من وحيه المنزل على رسوله محمد ﷺ، مع اعتقاد استحقاقه لهذه العبادة وحده سبحانه على وجه الانفراد والتبرؤ من كلّ ما يعبد من دونه سبحانه، وهذا هو ما يعرف بتوحيد العبادة، أو توحيد العبودية، أو توحيد الألوهية، أو توحيد القصد والطلب، ونحو ذلك.

وهذا النوع الثاني من الإيمان وهو ما يعرف بتوحيد العبادة هو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥]، وهو المقصود في قول النبي ﷺ: «**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا من المغانم الخمس**»[1].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي - (١ / ٢٣).

ففسر النبي ﷺ الإيمان بالله تعالى بالتوحيد وما يتبعه من العمل الواجب لهذا الإيمان؛ والإيمان بالله تعالى يقتضي التوحيد؛ لأن الإيمان به لا بد أن يكون بإثبات ذاته وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ومعلوم أنه سبحانه متصف بالوحدانية في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

فهو سبحانه واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله؛ فلا يشابهه في شيء من ذلك أحد، وليس له في شيء من ذلك شبيه ولا نظير؛ ولما كانت أسماؤه وصفاته سبحانه دالة على ربوبيته وعبوديته -مع اتصافه بالوحدانية والتفرد في ذلك كلّه- كان الإيمان بالله تعالى بأسمائه وصفاته مقتضيا لتوحيده سبحانه في ربوبيته وعبوديته.

ومع اقتضاء الإيمان للتوحيد فقد جاء توكيد النبي ﷺ لمعنى التوحيد في الإيمان بقوله ﷺ: «**آمركم بالإيمان بالله وحده**» فنص على أن الإيمان لا بد معه من التوحيد الذي يقتضيه؛ لأن اقتضاء الإيمان للتوحيد ربما لا يتضح للعامة، فنص النبي ﷺ على ما يقتضيه من ذلك.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] هي سر الفاتحة، وسر أسرار القرآن الكريم؛ وذلك لأن توحيد العبادة هو المقصد الأعظم.

وبيان ذلك أن قضية التوحيد هي قضية القرآن الأولى، وهي أعظم قضاياه؛ وعليها تتفرع سائر القضايا والأحكام.

التوحيد هو محور القرآن الكريم:

لا شك أن التوحيد هو المحور الذي يدور عليه القرآن الكريم، والأساس الذي انطلقت منه حواراته مع المشركين، تلك الحوارات التي شملت جميع القضايا الإيمانية -في العهد المكي- وشملت قضايا الأحكام والتشريعات في العهد المدني.

ونستطيع القول إن القرآن الكريم كلّه أو جلّه حوار حول قضية التوحيد؛ وفي ذلك

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «بل نقول قولًا كليًا: إنّ كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وأما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وأما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وأما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيده وأما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال. وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد»[1].

لقد اهتم القرآن بعرض محاورات الأنبياء لأقوامهم حول قضية التوحيد ودعوتهم إلى عبادة الله الواحد الأحد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: الآية ٣٦]».

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥].

ثبوت ربوبية الله تعالى عند أغلب الطوائف:

إن ربوبية الله ثابتة لدى جلّ طوائف الناس، بما فيهم المكابرون كفرعون

---

(١) مدارج السالكين للإمام ابن القيم ٣ / ٤٥٠ .

وأمثاله حينما قال: قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النّازعات: الآية ٢٤] وقال سبحانه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: الآية ٣٨]، لكنه برغم ادعائه للربوبية يعلم يقينا أن الرب الحقيقي غيره، كما أخبر بذلك رب العزة في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النّمل: الآية ١٤].

وهناك من الناس من ادعى للكون إلهين، كما هو حال المجوس ومن وافقهم حينما جعلوا للعالم خالقين، واحدا للظلمة وآخر للنور لكنهم غلبوا إله النور واعتبروه إله الخير بينما إله الظلمة هو إله الشر[1]، «وليس في جميع الكفار من جعل لله شريكًا مساويًا له في ذاته وصفاته وأفعاله. وهذا لم يقله أحد قط، لا من المجوسية الثنوية[2]، ولا من أهل التثليث، ولا من الصابئة والمشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة، ولا عباد الأنبياء والصالحين ولا عباد التماثيل والقبور وغيرهم»[3].

ولقد عرف عرب الجاهلية أن لهم ربا خالقًا لهذا الكون وتعرفوا على بعض صفاته، وأخلصوا له الدعاء وقت الشدة والاضطرار، والناظر في أشعارهم يجد ذلك واضحا كل الوضوح.

---

(١) للتوسع انظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٣٠، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ٥٤، الخطط للمقريزي ٢/ ٣٤٤.

(٢) الثنوية: أصحاب الاثنين الأزليين فإنهم قالوا بأن النور والظلمة أزليان قديمان متساويان في القدم ولكنهما يختلفان في أمور منها الجوهر والطبع والفعل والحيز - الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٤٤).

(٣) منهاج السنة النبوية في نقد الشيعة والقدرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٤٤.

يقول عبد المطلب جد النبي ﷺ في جيش أبرهة الحبشي الذي غزا الكعبة في عام الفيل:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضًا:

لاهم إن العبد يمنع ... رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا ... فأمر ما بدا لك
ولئن فعلت فإنه ... أمر تتم به فعالك[1]

ويقول زهير بن أبي سلمى:

بدا لي أن الله حق فزادني ... إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم ... وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا[2]

ويقول عنتر بن شداد:

يا عبل أين من المنية مهرب ... إذا كان رب في السماء قضاها[3]

ويقول أمية بن أبي الصلت:

إذا قيل من رب هذي السما ... فليس سواه له مضطرب
ولو قيل رب سوى ربنا ... لقال العباد جميعا كذب[4]

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥، تاريخ الطبري ١ / ٤٤٢ .
(٢) ديوان زهير، ١٠٦ دار صادر بيروت ١٩٦٤م.
(٣) ديوان عنترة بن شداد، ١٠١، ط٣، ١٩٨٠م دار مصعب بيروت لبنان.
(٤) ديوان أمية، تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي، ٣٤٣ - ٣٤٤، دمشق ١٩٧٤م.

ولو أردنا أن نلتمس شاهدا، أو دليلا لذلك فالقرآن خير شاهد؛ فقد ورد في حوارات القرآن الكريم للمشركين ما يثبت إقرارهم بربوبية الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: الآية ٣١].

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وهذه الآيات وغيرها كثير أكبر دليل على اعتراف المشركين بربوبية الخالق، لذلك صرفوا له بعضا من عباداتهم مثل الدعاء وبعض القربات كالصدقات وسدانة البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وغير ذلك وقد ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦].

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

إن رب العزة جلّ وعلا لم يرفع عن المشركين صفة الشرك بمجرد هذا الإقرار الواضح، أو صرف بعض العبادات له سبحانه - مع صرف غيرها لغيره- بل

وصفهم بالشرك رغم تلك الأعمال فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وقال أيضا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥].

ورد عليهم زعمهم بأنهم على التوحيد وعلى ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: الآية ٦٨].

إن ربوبية الله تعالى -في أغلب صورها وصفاتها- حقيقة ثابتة اتفق عليها أهل الشرك مع أهل التوحيد والإيمان، وبذلك كانت نقطة الالتقاء والبداية أو المقدمة التي انطلق القرآن من خلالها لإثبات توحيد العبودية، وذلك من خلال حواراته العديدة للمشركين.

والتوحيد في اللغة: من قولهم: وحّد الشيء توحيدًا: أي: جعله واحدًا.

قال الجوهري: «الوحدة الانفراد، تقول: رأيته وحده، . . كأنك قلت: أوحدته برؤيتي إيحادا أي لم أر غيره» . . . ويقال وحده وأحده كما يقال ثناه وثلثه، ورجل وحد ووحد ووحيد أي منفرد، وتوحد برأيه تفرد به . . . وفلان واحد دهره أي لا نظير له[1].

---

(١) الصحاح للجوهري ٢ / ٧٤٥ .

ومن ثم، فالتوحيد لغة: مصدر وحّد توحيدًا، وهو جعل الشيء واحدا منفردا عما يشاركه أو يشبهه في كل شيء.

ومعناه اصطلاحا: إفراد الله ﷻ بالعبادة؛ فمن أفرد الله بالعبادة فقد وحّده، يعني: أفرده عن غيره.

وقيل هو: «إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هو أن لا يشركه شيء من الأشياء فيما هو من خصائصه»[٢].

و«التّوحيد» -على سبيل التفصيل- ثلاثة أنواع:

النوع الأول: توحيد الربوبية، وهو: إفراد الله-تعالى- بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة، وتدبير الخلائق، أي: لا خالق، ولا رازق، ولا محيي، ولا ضار، ولا نافع؛ إلا الله ﷻ.

فهذا يُسمّى: توحيد الربوبية، وهو: توحيده بأفعاله ﷻ، فلا أحد يخلق مع الله، ولا أحد يرزق مع الله، ولا أحد يحي ويميت مع الله ﷻ.

وهذا النوع من أقرّ به وحده لا يكون مسلمًا؛ لأنه قد أقرّ به الكفار، كما ذكر الله جل وعلا في القرآن في آيات كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: الآية ٨٧]

وقال تعالى: ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن

(١) لوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٥٧ .
(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣ / ٧٤ .

سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزُّخرُف: الآية ٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يُونس: الآية ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النَّمل: الآية ٦٤].

فهذه الآيات وغيرها كثير أخبر الله فيها أن المشركين يقرّون بأن الله هو الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، ومع هذا لا يثبت لهم إسلام ولا توحيد؛ لأنهم لم يأتوا بالنوع الثاني وهو توحيد العبادة الذي هو المقصد الأعظم.

النوع الثاني: توحيد الألوهية، ومعناه: إفراد الله-تعالى- بالعبادة، أو هو «استحقاقه ﷻ أن يعبد وحده لا شريك له»[(١)]، فهو «إفراده بالتأله»[(٢)]، «وحقيقته إفراد الرب سبحانه بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع»[(٣)]، أو«هو

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٢٤، وانظر مجموع الفتاوى ٣/ ١٠١ و١١ / ٥٠، وأنظر أيضا درء التعارض بين العقل والنقل ٩/ ٣٧٧.

(٢) شفاء العليل لابن القيم ١٣٩.

(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم ٥٠٧.

إفراده وحده، بأجناس العبادة وأنواعها وإفرادها من غير إشراك به في شيء منها مع الاعتراف بكمال ألوهيته»[١].

ومن خلال هذه التعريفات يتضح لنا أن توحيد الألوهية -ويسمى توحيد القصد والطلب-[٢] هو إفراد الله بجميع العبادات القولية والعملية الظاهرة كأعمال الجوارح والباطنة كأعمال القلوب من غير إشراك بالله تعالى في شيء من تلك العبادات.

وهذا التوحيد هو الذي بعث الله تعالى به جميع رسله، وهو أول واجب على العبيد، ولا يقبل العبد عند الله بدونه: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف: الآية ٤٥] يقول الطاهر بن عاشور[٣]: «والأمر بالسؤال هنا -في هذه الآية- تمثيل لشهرة الخبر وتحققه... والمعنى: استقر شرائع الرسل وكتبهم وأخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة»[٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: الآية ٣٦]، فجميع الأنبياء

---

(١) الفتاوى السعدية ١٠، ويراجع أيضا فتاوى ابن عثيمين ١/ ٢٠، ٢٧.

(٢) حافظ بن أحمد حكمي - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول - دار ابن القيم - الدمام - الطبعة الأولى، ١٤١٠ - ١٩٩٠- تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر - ١/ ٩٨، وانظر عبد الرحمن عبد الخالق - القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة - ص ١٧.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، وهو أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة ١٢٩٦هـ، وتوفي رحمه الله سنة ١٣٩٣هـ، من مصنفاته «مقاصد الشريعة» و«تفسير التحرير والتنوير» و«أصول الإنشاء والخطابة». كتاب الأعلام للزركلي ٦ / ١٧٤.

(٤) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٥ / ٢٢٢.

والرسل جاءوا ليحققوا هذا النوع من التوحيد مع سائر ما أمروا به من الاعتقادات والشرائع.

وهذا النوع غير توحيد الربوبية الذي هو إفراده بالخلق والرزق والتدبير، بل إفراد الله بالعبادة؛ بأن لا يُعبد الا الله ﷻ لا يُصلّى، ولا يُدعى، ولا يُذبح، ولا يُنذر، ولا يُحج، ولا يُعتمر، ولا يُتصدق، ولا... إلى آخره؛ إلا لله ﷻ، يبتغى بذلك وجه الله ﷻ.

وهذا هو الذي وقعت الخصومة فيه بين الرسل والأمم، (ودارت عليه أكثر الحوارات القرآنية بين الرسل وأقوامهم)[1].

أما الأول فما وقعت فيه خصومة، لأن الأمم مقرّة بأن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر، ولم يُنكر توحيد الربوبية إلاّ شُذّاذ من الخلق، أنكروه في الظاهر، ولكنهم مستيقنون به في الباطن، من ذلك: فرعون، وإن كان جحد وجود الرّب ﷻ، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات: الآية ٢٤] فهذا في الظاهر، وإلاّ فهو يقر في قرارة نفسه أنه ليس برب، وأنه لا يخلق، ولا يرزق، وإنما في قرارة نفسه يعترف بأن الله هو الخالق الرازق، كذلك الشيوعية في عصرنا الحاضر جحودها للرّب، هذا في الظاهر، وإلا كل عاقل يعلم أن هذا الكون ما وُجد من دون خالق، ومن دون مدبّر، ومن دون موجد، أبدًا، كل عاقل يعترف بتوحيد الربوبية[2].

ومن خلال ما سبق نخلص إلى أن علم التوحيد -بقسميه السابقين- هو العلم الذي يبحث فيما يجب للخالق سبحانه من تنزيهه في صفاته عن الشريك، وفيما

---

(١) ما بين القوسين تصرف مني.
(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد - مؤسسة الرسالة - بتصرف يسير (١ /١٩).

يجب من إفراده سبحانه بالعبادة.

ولذا يسمى النوع الأول بالتوحيد العلمي الخبري، أو توحيد المعرفة والإثبات، والنوع الثاني بتوحيد القصد والطلب[١].

إن علم التوحيد يدور على إثبات أن لهذا الكون خالقًا واحدًا لا يشاركه في هذا الخلق والتدبير أحد، وهو بذلك المستحق للعبادة دون ما سواه، وهذا ما دعت إليه جميع الرسل، وبينوه للناس، لأن البشرية أخذت في التخبط في فهم هذا التوحيد[٢]، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وقد تقسمت الطوائف التوحيد وسمى كل طائفة باطلهم توحيدًا. فأتباع أرسطو و ابن سينا و النصير الطوسي، عندهم التوحيد: إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة، بل هو وجود مطلق، لا يعرض لشيء من الماهيات، ولا يقوم به وصف، ولا يتخصص بنعت، بل صفاته كلها سلوب وإضافات»[٣].

وواضح لكل من له أدنى علم بكتاب الله تعالى أن ذلك أبعد ما يكون عن منهج القرآن في بيان توحيد الله تعالى، وقد نحا نحو ذلك المذهب أهل الحلول والاتحاد فقالوا: «إن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه، وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود، وحقيقته وماهيته، وأنه آية كل شيء، وله فيه آية تدل على أنه عينه، وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير، بل هو نفس الآية، ونفس الدليل ونفس المستدل

---

(١) حافظ بن أحمد حكمي - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول - دار ابن القيم - الدمام - الطبعة الأولى، ١٤١٠ - ١٩٩٠- تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر - ٩٨/١، وانظرعبد الرحمن عبد الخالق - القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة - ص ١٧

(٢) د/ خليفة البلوشي - مناظرات النبي ﷺ ص ١٣٦ بتصرف.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣ تحقيق: محمد حامد الفقي - ٤٤٧/٣ .

ونفس المستدل عليه. فالتعدد: بوجود اعتبارات وهمية، لا بالحقيقة والوجود، فهو عندهم عين الناكح وعين المنكوح وعين الذابح وعين المذبوح وعين الآكل وعين المأكول، وهذا عندهم: هو السر الذي رمزت إليه هوامس الدهور الأولية، ورامت إفادته الهداية النبوية، كما قاله محققهم وعارفهم ابن سبعين»[١].

ونتيجة للبعد عن منهج القرآن في بيان التوحيد، مع اتباع كلّ فرقة لأهوائهم ضلّت الفرق المبتدعة، وانقسمت في قضية التوحيد أقساما عديدة، يقول الإمام ابن القيم: «وأما الجهمية[٢]، فالتوحيد عندهم: إنكار علو الله على خلقه بذاته، واستوائه على عرشه وإنكار سمعه وبصره وقوته وحياته وكلامه وصفاته وأفعاله ومحبته ومحبة العباد له. فالتوحيد عندهم: هو المبالغة في إنكار التوحيد الذي بعث الله به رسله. وأنزل به كتبه.

وأما القدرية[٣]، فالتوحيد عندهم: هو إنكار قدر الله، وعموم مشيئته

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٣/٤٤٨ .

(٢) الجهمية: نسبة إلى جهم بن صفوان الضال المبتدع، تلميذ الجعد بن درهم أول من صدر عنه القول بخلق القرآن، وقال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وزعم أيضا أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط، وقال: لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. للتوسع، انظر الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ٢١١، والملل والنحل للشهرستاني ١/٩٧ .

(٣) القدرية: هم نفاة القدر، ظهرت هذه الفرقة في البصرة وأول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا ثم أسلم ثم تنصر وأخذ عنه معبد الجهني ثم غيلان الدمشقي والقدرية أربعة أصناف:
- القدرية النافية.
- القدرية المجبرة.
- القدرية المشركية.
- القدرية الإبليسية. للتوسع، يراجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٨/٦٣ - ٦٥، وتاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبو زهرة، ١٦٢ - ١٦٣، ومذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي ٩٧ - ١٠٧ .

للكائنات، وقدرته عليها. ومتأخروهم ضموا إلى ذلك: توحيد الجهمية.

فصار حقيقة التوحيد عندهم: إنكار القدر، وإنكار حقائق الأسماء الحسنى والصفات العلا، وربما سموا إنكار القدر، والكفر بقضاء الرب وقدره: عدلا وقالوا: نحن أهل العدل والتوحيد.

وأما الجبرية[١]، فالتوحيد عندهم: هو تفرد الرب تعالى بالخلق والفعل، وأن العباد غير فاعلين على الحقيقة، ولا محدثين لأفعالهم، ولا قادرين عليها، وأن الرب تعالى لم يفعل لحكمة، ولا غاية تطلب بالفعل، وليس في المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب، بل ما ثم إلا مشيئة محضة ترجح مثلًا على مثل بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب ألبتة»[٢].

وقد اكتفيت بما ذكره الإمام ابن القيم كمثال يبين لنا موقف طوائف الفرق الإسلامية من قضية التوحيد، وكيف تفرقوا في هذه القضية فرقا لا تحصى بسبب ابتعادهم عن المنهج القرآني في هذه القضية، وخروجهم عنه إلى فلسفات وآراء وأهواء ما أنزل الله بها من سلطان، تمسكوا بها وقدموها على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ مما أوقعهم في الضلال المبين.

وقد تبنى العلماء الرد على هذه الأهواء والبدع جملة وتفصيلا، وليس الاستطراد فيها من غرض هذا البحث[٣].

---

(١) الجبرية: هم الذين ينفون قدرة العبد ومشيئته وأوضح فرقة تمثل هذا الاتجاه الجهمية الذين يردون كل شيء إلى الله، والعبد عندهم ليست له أي قدرة. للتوسع يراجع الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٩٧، والفرق بين الفرق للبغدادي ٢١١.

(٢) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٣) للتوسع، انظر، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد، ابن تيمية - تحقيق موسى الدرويش، ط٢، ١٤١٥هـ، وتطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، =

أقسام التوحيد:

وقد اهتم العلماء قديمًا وحديثًا بعلم التوحيد وقد قسموه إلى عدة أقسام حتى يسهل فهمه وإدراكه، فبعضهم قسمه إلى قسمين: توحيد الربوبية أو ما يسمى بتوحيد المعرفة والإثبات أو توحيد الله بأفعاله سبحانه، وأدخل في هذا توحيد الأسماء والصفات، والقسم الثاني هو توحيد الألوهية أو توحيد القصد والطلب[١].

أو توحيد الله بأفعال المكلفين، وعلى هذا القول الإمام ابن القيم رحمه الله[٢]، وهناك من قسمه إلى ثلاثة أقسام رئيسة توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات[٣] ومنهم من قسمه إلى أربعة أقسام، هي توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء وتوحيد الصفات[٤]، والحقيقة أن هذه التقسيمات لفظية، لأن مضمونها واحد، إذ إن التوحيد الصادق لا يتحقق إلا بالتصديق الكامل بكل أقسام التوحيد فالإقرار بالألوهية يتضمن الإقرار بالربوبية والأسماء والصفات، وعلى هذا النحو سار السلف الصالح في فهم التوحيد قال ابن

= للالكائي - تحقيق حمدان، الناشر دار طيبة، الرياض، ط١، القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد عبد الرزاق بن عبد المحسن.

(١) حافظ بن أحمد حكمي - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول - دار ابن القيم - الدمام - الطبعة الأولى، ١٤١٠ - ١٩٩٠- تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر - ١/ ٩٨، وانظرعبد الرحمن عبد الخالق - القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة - ص ١٧

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٨٩، وطريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٥٥ .

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد شرح الشيخ محمد صالح بن عثيمين ١/ ٥ .

(٤) إن صنيع الإمام ابن مندة يشعر بهذا النوع من التقسيم من حيث اللفظ، وعلى هذا النحو سار جمع من العلماء فبعضهم يوجز من حيث العدد والبعض يفصل كل حسب حاجة عصره، إلا أنهم يتفقون في المضمون والمحتوى. انظر كتاب التوحيد لابن مندة ١/ ٢٧، وكتاب حقيقة التوحيد والفرق بين توحيد الربوبية والألوهية للدكتور علي بن نفيع ٩٠ - ٩١ .

عباس ﷺ: في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢] «أي لا تشركوا به غيره من الأنداد التي لا تضر ولا تنفع وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره»[١]، وهذا لا يعني أنه لا يوجد فرق بين أنواع التوحيد، بل هناك فرق، ولكن الإقرار بواحدة منها يستلزم الإقرار بالبقية لأن الرسول ﷺ جاء بالتوحيد كاملا، وهذا ما فهمه الصحابة الكرام ومن أتى بعدهم من أهل العلم الثقات، يقول ابن تيمية: «وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته، وهو أنه رب كل شي ومليكه وخالقه ومدبره»[٢].

وبالجملة يمكن أن يقال إن التوحيد على قسمين قسم يتعلق بالرب وقدرته على الخلق والتدبير وأسمائه وصفاته وأفعاله جل وعلا، وقسم ثاني من التوحيد وهو ما يتعلق بما يصدر من العباد من أفعال يقصد بها التعبد لله تعالى، فيكون هذا القسم شاملا لجميع العبادات، وأن الاختلاف في التقسيم لا يضر طالما أن المضمون ثابت[٣].

والخلاصة أنه: لما كان غالب شرك الناس بالله رب العالمين إنما يقع في تقديم شيء من العبادة لغير الله تعالى، أو سؤال غير الله تعالى والاستعانة به في أمور لا يقدر عليها إلا الله تعالى -لما كان ذلك كذلك- بين الله تعالى في هذه السورة الكريمة ما يجب على العباد من مبايعة رب العالمين على إفراده بالعبادة والاستعانة بقولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]؛ فإفراده بالعبادة يقتضي عدم صرف شيء من العبادات لغير الله تعالى من دعاء أو نسك كالذبح للأولياء، والطواف حول قبورهم، والعكوف على أضرحتهم، والتمسح والتبرك

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ١/ ٨٧.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/ ٢٢٥.
(٣) د/ البلوشي - مناظرات النبي ﷺ - ص ١٤٠ بتصرف.

بها، مع ما يصاحب ذلك من الخشوع والخضوع والرغبة والرهبة والخوف والطمع والإقبال والتبتل، وغير ذلك من العبادات التي لا تكون لغير الله تعالى.

وإفراده سبحانه بالاستعانة يقتضي ترك ذلك كلّه كذلك لأن الدافع الذي يدفع الناس لتقديم تلك العبادات لغير الله تعالى هو اعتقادهم أنهم يملكون لهم شيئا من النفع أو دفع الضر، ونحو ذلك فيستعينون بهم متوسلين إلى رضاهم عنهم وتحقيق طلبتهم بتقديم تلك العبادات والقرابين؛ وإن كانت الاستعانة بهم بغير عبادة شرك في حدّ ذاتها، وكذلك توجه القلب نحوهم وميله إليهم وتعلقه بهم في كشف الضر، أو جلب النفع؛ بل مجرد الاعتقاد بكونهم يملكون ذلك أو يتصفون به هو شرك في ذاته.

اشتمال الفاتحة على:

الإيمان بالملائكة والكتب والرسل:

والإشارة إلى ذلك تتضح من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] دال على الرسالة؛ لأن العبادة لا تعرف أحكامها إلا عن طريق الرسل؛ وذلك أن الله تعالى لا يعبد الا بما شرع، وبالوجه اللائق به سبحانه، ولا يقدر قدره أحد، ولا يعرف ما يليق به إلا بإعلام منه سبحانه، ولا نعرف ما يحب، وما يكره من الأفعال إلا بإعلام منه سبحانه؛ ومن ثم اقتضى ذلك ضرورة إرسال الرسل، وإنزال الرسالة والكتب، وهذا الإنزال إنما هو إثبات للواسطة التي نزل بها الوحي وهو الملك؛ فثبت بذلك كل من الملائكة والكتب والرسل.

وكذلك قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦] دال على الرسالة كذلك من جهة أن الهداية وهي البيان والإرشاد لا تحصل إلا عن طريق هاد

ومبين؛ فاقتضى ذلك إنزال الوحي بالكتب المقدسة لبيان الطريق المستقيم، والوحي والكتاب إنما ينزل به ملك على رسول بشري يصطفيه الله تعالى ليبين للناس ما نزل إليهم؛ فدل ذلك كذلك على إثبات الملائكة والكتب والرسل.

وكذلك قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ [الفاتحة: الآية ٧] لأنّ الرُّسُل صفوةُ المُنعم عليهم. وقد بيّن الله ﷻ ذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: الآية ٦٩].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [مريم: الآية ٥٨]... الآية. فبدأ بهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبدٌ أَنعَمنَا عَلَيهِ﴾ [الزخرف: الآية ٥٩]، ﴿رَبِّ أَوزِعنِيٓ أَنْ أَشكُرَ نِعمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنعَمتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: الآية ١٩]. ﴿وَيُتِمُّ نِعمَتَهُۥ عَلَيكَ﴾ [يوسف: الآية ٦]... الآيات ونحوها.

وأما الإيمان باليوم الآخر: فهو ظاهر من قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: الآية ٤] وذلك أن يوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، وهو اليوم الآخر بلا شك.

قال ابن كثير: «والدين: الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَومَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلحَقَّ﴾ [النور: الآية ٢٥]، وقال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: الآية ٥٣] أي: مجزيون محاسبون، وفي الحديث: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**» أي حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَومَئِذٍ تُعرَضُونَ لَا تَخفَىٰ مِنكُم خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: الآية ١٨]».

وأما الإيمان بالقدر:

قال الطوفي:

«وأما الإيمانُ بالقدر: ففي قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ إذ فيه بيانُ أنّ:

١- الإعانةُ على عبادته منهُ.

٢- والاستعانةُ به والهدايةُ إليه.

وإلى الأول الإشارة بقوله ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: الآية ٧]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: الآية ٩٦] ونحوها من الآيات المثبتة للقدر».

قلت: وهاتان الآيتان المذكورتان في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ قد دلتا على الاعتقاد الصحيح في القدر، وهو معتقد أهل السنة والجماعة، من إثبات كسب العبد واختياره لأفعاله، مع اعتقاده أن ذلك كلّه بقدرة الله تعالى وإرادته وتقديره؛ وذلك أنه أثبت للعبيد عبادة واستعانة ونسب فعلها إليهم، فهم أصحابها، وقد اختاروها وبايعوا الله تعالى عليها دون خلقه، وهم في الوقت نفسه يقرون أن الهداية لذلك والتوفيق إليه لا يكون بحول منهم ولا قوة، ولذلك يسألونه الهداية لذلك والتوفيق إليه، ويستعينون به على الفعل، وهذا هو الاعتقاد الصحيح في القدر.

ومن ثم نتبين اشتمال هذه السورة الكريمة على سائر أركان الإيمان.

قال الطوفي:

إنّ القُرآن مشتملٌ على مقاصد الإيمان؛ وهي: التّصديقُ بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، كما ثبت ذلك في حديث جبريل

في الحديث الصّحيح[١].

وهذا هو مقصودُ القرآن بالذّات، ولذلك سمّى (إيمانًا) في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: الآية ٥] يعني: بالقُرآن فيما قاله بعضُهُم.

وهذه المقاصد كلها مشارٌ إليها في الفاتحة:

١- **أما الإيمانُ بالله**: ففي قوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ [الفاتحة: الآية ٢]، فإنّ إيجاب الحمد لله ﷻ يقتضي أنّه موجودٌ مستحقّ لهُ.

٢- **وأما الإيمانُ بالملائكة**: فهو في ضمن قوله ﷻ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ (العالمون) من سوى الله ﷻ؛ ومنهُم: الملائكةُ.

وأيضًا في ضمن قوله ﷻ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: الآية ٧] ومن جُملة المُنعم عليهم ذوي الصّراط المستقيم: الملائكة؛ لقوله ﷻ في صفتهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: الآية ٦]، وهذا هو مقصودُ الصّراط المستقيم.

---

(١) أخرَجَهُ البُخاري (رَقْم: ٥٠ و٤٧٧٧) ومسلم (رَقْم: ٨ و٩ و١٠).
ولَفظُ مُسلِم (رَقْم: ١٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَلُونِي» فَهَابُوهُ أَنْ يَسْأَلُوهُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَجَلَسَ عِنْدَ رُكْبَتَيْهِ . فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «لاَ تُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ» . قَالَ صَدَقْتَ . قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ» . قَالَ صَدَقْتَ . قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» . قَالَ صَدَقْتَ . قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا رَأَيْتَ الْمَرْأَةَ تَلِدُ رَبَّهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبُهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ مِنَ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ» . ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ قَالَ: ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُدُّوهُ عَلَيَّ» فَالْتُمِسَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا») [تحفة ١٤٩١٥ - ٧/١٠]

٣- **وأما الإيمان بالكتب**: فقد تضمّنه قولُه ﷻ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وهو القرآنُ -في أحد الأقوال - وهي مُتلازمة: فالقرآنُ مُرادٌ على تجميعها قصدًا أو التزامًا، وسؤالُ الهداية يستلزمُ الإيمان به، إذ لا يؤمن بشي لا يسأل الهداية إليه، والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع كتب الله ﷻ؛ لأنه موافق مصدّقٌ لها آمرٌ بالإيمان بها.

٤- **وأما الإيمانُ بالرُّسُل**: فقد تضمّنه قوله ﷻ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إذ هم صفوةُ العالمين، وأبيّنُ منهُ قولُه ﷻ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: الآية ٧] لأنّ الرُّسُل صفوةُ المُنعم عليهم. وقد بيّن الله ﷻ ذلك في قوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [مريم: الآية ٥٨]. . . الآية، فبدأ بهم: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: الآية ٥٩]، ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: الآية ١٩]، ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [يوسف: الآية ٦]. . . الآيات ونحوها.

٥- **وأما الإيمانُ باليوم الآخر**: ففي قوله ﷻ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤] يعني: يومُ الحساب والجزاء، وحين (يُدانُ النّاس بأعمالهم)؛ أي: يُجزون.

٦- **وأما الإيمانُ بالقدر**: ففي قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ إذ فيه بيانُ أنّ:

١- الإعانةُ على عبادته منهُ.

٢- والاستعانةُ به والهدايةُ إليه.

وإلى الأول الإشارة بقوله ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: الآية ٧]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: الآية ٩٦] ونحوها من الآيات المثبتة للقدر.

فأمّا ما في القرآن من القصص وأخبار الأوّلين والآخرين: فهو خارجٌ مخرج التكملة للمقاصد المذكورة، وربّما تضّمنه قوله ﷺ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ [الفاتحة: الآية ٧]. . . إلى آخر السورة؛ لأنّ المُخْبر عنهم في القرآن لا يخرجون عن أن يكونوا: مُنعمًا عليهم، أو مغضوبًا عليهم، أو مهتدين، أو ضالين، فهذا وجه».

قلت: فمن ذهب إلى أن القرآن كله في التوحيد جعل ما فيه من القصص ومن الأحكام من مكملات التوحيد؛ فالأحكام كلها هي حقوق التوحيد والعبودية وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

وأما القصص ففيه بيان المؤمنين وعاقبتهم، وبيان الكافرين ومآلهم، وهو مشار إليه في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: الآية ٧].

فقد اشتمل على الإشارة لحال الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ممن فصل القرآن قصصهم وأحوالهم.

كما أشار للمغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى والمشركين والكافرين ممن فصل القرآن قصصهم وأحوالهم كذلك.

فأيا ما قلت في القرآن من جهة كونه كله في التوحيد، أو قلت إنه أقسام ثلاثة:

١- توحيد

٢- أحكام

٣- قصص

فالفاتحة مشتملة على ذلك كلّه كما بينا.

على أن القولين يرجعان عند التحقيق إلى قول واحد؛ لأن من قال: إن القرآن كله في التوحيد جعل الأحكام والقصص من مكملات التوحيد.

قال الطوفي:

والوجهُ الثّاني[١]:

أنّ القرآن مشتملٌ على: الوعد والوعيد، والحلال والحرام، وغيرهما من الأحكام، والقصص والأخبار:

أما الوعدُ: ففي ضمن قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: الآية ١]، وقوله ﷻ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: الآية ٧] والوعدُ فيه ظاهرٌ؛ لاشتماله على صفتي الرّحمة والإنعام.

وأما الوعيدُ: ففي قوله ﷻ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤] إذ فيه إشارة إلى أنه ﷻ: مالكُ يوم الحساب والجزاء، فيُجازي كُلًا بفعله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: الآية ١٩] وأيضًا قوله ﷻ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: الآية ٧]؛ لأنّ صفتي الغضب والضّلال تقتضيان ترتُّب الوعيد عليهما.

وأمّا الحلالُ والحرامُ ونحوهما من الأحكام: ففي قوله ﷻ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤] إذ المراد بـ (الدين) الجزاءُ المستلزم للتّكليف بأحكام الأفعال المُجازى عليه من إيجابٍ وحظرٍ وكراهةٍ وندبٍ.

وكذا قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] فصرّح بلفظ (التّعبُّد) الذي هو من التّكليف الموجب لوجود الأحكام على المكلّفين.

---

(١) أي من وجوه اشتمال الفاتحة على مقاصد القراءات.

وأما القصصُ والأخبارُ: ففي قوله ﷻ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧]. . . إلى آخر السورة. ويقرّره ما مرّ في الوجه قبله من أن المخبر عنهم: إما منعمٌ عليه، أو مغضوب عليه، أو مهتدٍ، أو ضال.

وما كان من الأخبار المعاد، ففي قوله ﷻ: ﴿مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] وهي مذكورة في كتاب (العاقبة) وكتاب (البعث والنشور) وغيرها من كتب السنة.

الوجه الثالث: أنّ القرآن لا يخرجُ عن أنْ يكون ثناءً على الله ﷻ، أو عبادةً له ﷻ، والفاتحة: أوّلُها ثناءٌ، وآخرُها عبادةٌ أعني: دعاءً إليها، والعبادةُ: تارة تكون بدعاءٍ نحو (إهدنا) وهو مخّ العبادة -كما صحّ به الحديث[1]- ودلّ عليه قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدعُونِيٓ أَستَجِب لَكُم إِنَّ ٱلَّذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي﴾ [غَافِر: الآية ٦٠]. . . الآية، وتارة: بغير الدّعاء نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥].

فهذه ثلاثُ أوجهٍ في بيان اشتمال الفاتحة على مقاصد القُرآن من حيث الإجمال، وربّما أمكن استخراجُ غيرها عند إمعان النّظر، لكنّي لم أستقصه وإنّما أوردتُ ما ظهر.

قلت وقد بين غيره وجوها أخرى لاشتمال الفاتحة على جميع مقاصد القرآن؛ فمن ذلك ما ذكره الطاهر بن عاشور في تفسيره قال:

«ووجه تسميتها أم القرآن أن الأم يطلق على أصل الشيء ومنشئه، . . . وقد

---

(١) ديثُ: «الدّعاءُ مُخّ العِبادَة» أخرَجَهُ التِّرمِذي (رَقْم: ٣٣٧١) والطّبراني في (الأوسط) (رَقْم: ٣٢٢٠) مِن حديثِ أنسٍ ﷺ. وهو حديثٌ ضَعيفٌ بِهذا اللفظِ.
واللفظ الصَّحيح هو حديث النّعمان بن بَشير ﷺ مرفوعًا بلفظ: «الدّعاءُ هُو العِبادَة» أخرَجَهُ الترمذي (رَقْم: ٢٩٦٩ و٣٢٤٧ و٣٣٧٢) وأبو داود (رَقْم: ١٤٧٩) وابن ماجه (رَقْم: ؟؟؟) وأحمد ٤/ ٢٦٧ والبُخاري في (الأدب المفرد) (رَقْم: ٧١٤).

ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوها ثلاثة:

أحدها: أنها مبدؤه ومفتتحه فكأنها أصله ومنشؤه يعني أن افتتاحه الذي هو وجود أول أجزاء لقرآن قد ظهر فيها فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والمنشأ فيكون أم القرآن تشبيها بالأم التي هي منشأ الولد لمشابهتها بالمنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود.

الثاني: أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاثة أنواع:

(أ) الثناء على الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه من جميع النقائص ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء وذلك من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤].

(ب) والأوامر والنواهي من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥].

(ج) والوعد والوعيد من قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات لها لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي.

ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الآمر وأنه الله الواجب وجوده خالق الخلق لزم تحقيق معنى الصفات ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد.

والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع فإن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] إلى قوله: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] حمد وثناء وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] إلى قوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٥] من نوع الأوامر والنواهي، وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧]... إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد مع أن ذكر المغضوب عليهم والضالين يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن، وقد يؤيد هذا الوجه

بما ورد في الصحيح في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] أنها تعدل ثلث القرآن لأن ألفاظها كلها ثناء على الله تعالى.

١- الثالث أنها تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية فإن معاني القرآن:

(أ) إما علوم تقصد معرفتها.

(ب) وأما أحكام يقصد منها العمل بها.

فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص إما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات وأما عمل القلوب أي العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: الآية ٢] يشمل سائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى بناء على ما تدل عليه جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: الآية ٢] من اختصاص جنس الحمد به تعالى واستحقاقه لذلك الاختصاص كما سيأتي و ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يشمل سائر صفات الأفعال والتكوين عند من أثبتها و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: الآية ١] يشمل أصول التشريع الراجعة للرحمة بالمكلفين و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤] يشمل أحوال القيامة و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] يجمع معنى الديانة والشريعة و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] يجمع معنى الإخلاص لله في الأعمال، قال عز الدين بن عبد السلام في كتابه حل الرموز ومفاتيح الكنوز: الطريقة إلى الله لها ظاهر «أي عمل ظاهر أي بدني» وباطن «أي عمل قلبي»، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة والمراد من الشريعة والحقيقة إقامة العبودية على الوجه المراد من المكلف، ويجمع الشريعة والحقيقة كلمتان هما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] شريعة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] حقيقة اهـ.

و﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: الآية ٦] يشمل الأحوال الإنسانية وأحكامها من عبادات ومعاملات وآداب و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: الآية ٧] يشير إلى أحوال الأمم والأفراد الماضية الفاضلة وقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: الآية ٧] يشمل سائر قصص الأمم الضالة ويشير إلى تفاصيل ضلالاتهم المحكية عنهم في القرآن فلا جرم يحصل من معاني الفاتحة -تصريحا وتضمنا- علم إجمالي بما حواه القرآن من الأغراض. وذلك يدعو نفس قارئها إلى تطلب التفصيل على حسب التمكن والقابلية، ولأجل هذا فرضت قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة حرصا على التذكير لما في مطاويها».

قلت: ويمكن أن ينظر إلى الفاتحة كذلك من جهة كونها مقدمة للكتاب -من زاوية أخرى؛ وذلك أنه لما كان القارئ لكتاب الله تعالى - سواء كان في الصلاة أم خارجها- إنما هو بمثابة الواقف بين يدي الملك يتلقى خطابه وأوامره، وكانت الفاتحة هي مفتتح كلامه مع الملك سبحانه؛ لذا فقد وجب التأدب في ذلك بأدب الحديث مع الملوك وأدب الدخول عليهم -لاسيما إن كان ملك الملوك ورب الأرباب- ولما كان القرآن قد جرى على عادة العرب في ذلك في الدخول على الملوك وهو المتبع كذلك إلى اليوم عند كل قوم إذا دخلوا على ملوكهم ورؤساهم؛ فلا بد في ذلك من البدء بالحمد والثناء عليهم والتمجيد والتعظيم لهم؛ ثم التثنية بتعريف الوفد بأنفسهم وإعلانهم الولاء والطاعة والبيعة لمن دخلوا عليه من الملوك، ثم الختم بذكر حاجتهم ومقصودهم وطلبتهم من الملك.

وهذا كله مذكور في سورة الفاتحة فتأمل استفتاحه واستئذانه في الدخول عليه بقوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: الآية ١].

وتأمل دخوله عليه بالحمد والمدح والثناء والتمجيد والتعظيم في قول العبد مخاطبا ربه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

حيث أفرده باستحقاق الحمد كله، ووصفه بربوبية العالمين، فهو مالك العوالم كلها وسيدها ومدبر لأمرها ومصلحها، وأثنى عليه بصفتي الرحمانية والرحيمية للدلالة على اتساع رحمته ودوامها، ومجده بما له من تفرد بالملك والمالكية في يوم الدين وحده.

وتأمل تعريفه بنفسه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥]، وما فيها من مبايعة على العبادة والخضوع والطاعة والالتجاء إليه وحده دون من سواه.

ثم تأمل سؤالهم إياه حاجتهم في قولهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وتأمل بعد ذلك الحديث القدسي: «**قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل** -وفي رواية: **فنصفها لي، ونصفها لعبدي- فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: الآية ٢] **قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: الآية ١] **قال الله: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤] **قال: مجّدني عبدي** -وقال مرّة: **فوّض إليّ عبدي- وإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥] **قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل**». أخرجه مسلم والموطأ والترمذي والنسائي.

فإنك إذا تأملت هذا الحديث تبين لك صدق ما أوردناه وصحة ما استنبطناه من ذلك، والله تعالى أعلم.

بلاغة المتشابه في سورة الفاتحة

متشابه (سورة الفاتحة) عند الإمام الكرماني:

قال رحمه الله:

«أوّلُ المتشابهات قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ﴾ فيمن جعل ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: الآية ١] آية[1] من الفاتحة، وفي تكراره قولان: قال علي بن عيسى[2]» إنما كرر للتوكيد، وأنشد قول الشاعر:

هلا سألت جموع كندة يوم ولّوا أين أينا

وقال قاسمُ بنُ حبيبٍ[3]: «إنما كرر لأن المعنى وجب الحمدُ لله لأنه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: الآية ١]»، قلت: «إنما كرر لأن الرحمة هي الإنعامُ على المحتاج، وذكر في الآية الأولى المنعم ولم يذكر المنعم عليهم فأعادها مع ذكرهم وقال: ﴿*!*الرحمن الرحيم رب العالمين * ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لهم جميعًا ينعم عليهم ويرزقهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [سبأ: الآية ٢] بالمؤمنين خاصة يوم الدين ينعمُ عليهم ويغفرُ لهم.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥] كرّر ﴿إِيَّاكَ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] وقدّمه ولم يقتصرْ على ذكره مرة، كما اقتصر على ذكر أحد المفعولين في

---

(١) اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية، أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال. انظر تفسير ابن كثير في كلامه على البسملة.

(٢) علي بن عيسى أبو الحسن الرماني مفسر من كبار النحاة. ولد ببغداد ومات بها سنة ٣٨٤هـ، . له مؤلفات منها: التفسير وهو مفقود، والمعلوم والمجهول، والأكوان، ورسائل في إعجاز القرآن. . . وغيرها. انظر ترجمته في: (بغية الوعاة ٢ \١٨٠، ١٨١، وفيات الأعيان، وتاريخ بغداد ٢\١٦، ونزهة الألباء ٢٨٩، وإنباء الرواة ٢ \٢٩٤).

(٣) قاسم بن حبيب ذكره الزبيدي في الطبقة الرابعة من النحاة بالقيروان. (طبقات النحويين واللغويين ٣٧٢)، وذكره السيوطي في بغية الوعاة ٢ \٢٥٢\ ١٩١٧ .

آيات كثيرة منها: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: الآية ٣] أي: ما قلاك وكذلك الآيات التي بعدها معناها: فآواك، فهداك، فأغناك؛ لأن في التقديم فائدةً، وهي قطعُ الاشتراك، ولو حُذف لم يدلْ على التقديم؛ لأنك لو قلت: (إياك نعبد ونستعين) لم يظهر أن التقدير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] أم (إياك نعبد ونستعينك) فكرّره[١].

قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] كرّر الصراط لعلّةٍ تقرُبُ مما ذكرت في ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١]، وذلك أن الصراط هو المكانُ المهيّأُ للسلوك؛ فذكر في الأول المكان ولم يذكر السالكين، فأعاده مع ذكرهم فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] أي الذي يسلكه النبيون والمؤمنون؛ ولهذا كرر أيضا في قوله: . . . ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ﴾[٢] لأنه ذكر المكان المهيأ، ولم يذكر المهيئ، فأعاده مع ذكره فقال: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى: الآية ٥٣] أي الذي هيأه للسالكين.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] ليس بتكرار؛ لأن كلّ واحدٍ منهما متصلٌ بفعلٍ غير الآخر وهو: الإنعامُ، والغضبُ وكلٌّ واحدٍ منهما يقتضيه اللفظُ، وما كان هذا سبيلُه فليس بتكرارٍ ولا من المتشابه.

---

(١) والفرق بينهما: أن معنى الأول: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، والثاني: لا نعبد غيرك ونستعين بك وبسواك. فكرر إياك لقطع الاشتراك في أيٍّ من الفعلين.

(٢) الصراط: الطريق والسبيل، وذلك لقطع دعوى استقامة الطرق السلوكية التي يخترعها الناس، ولتخصيص الاستقامة بطريق الله وحده. وفي آية الفاتحة ذكر هذا المعنى مفهومًا من نتيجة السلوك على الصراط، وهي: الإنعام على السالكين من الله فإنعام الله على سالكيه دليل على أنه طريقه المرضي عنده.

بلاغة متشابه سُورة الفاتحة

في كتاب فتح الرحمن للشيخ زكريا الأنصاري

١- قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] أي أبتدئ. وتقديرُ العامل مؤخرًا كما صنعتُ أولى من تقديمه ليفيد الاختصاص، والاهتمام بشأن المقدّم. وإنّما قُدّم في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العَلق: الآية ١] للاهتمام بالقرآن، لأن ذلك أوّلُ سورةٍ نزلت.

٢- قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١]. كرره؛ لأن الرحمة هي الإنعامُ على المحتاج، وذكر في الآية الأولى المُنعم دون المُنعم عليهم، وأعادها مع ذكرهم بقوله: *!*﴿رب العالمين﴾... إلخ، فإن قلت: الرحمنُ أبلغ من الرحيم فكيف قدّمه؟ وعادةُ العرب في صفات المدح الترقّي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلانٌ عالمٌ نحرير.. لأن ذكر الأعلى أوّلًا، ثم الأدنى، لم يتجدد بذكر الأدنى فائدة، بخلاف عكسه؟! قلت: إن كانا بمعنى واحدٍ كندمان ونديم، كما قال الجوهري وغيره فلا إشكال، أو بأنّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] أبلغ كما عليه الأكثر، فإنما قدّمه لأنه اسمٌ خاصٌ باللّه تعالى كلفظ ﴿الله﴾.

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]. كرّر *!*﴿وإياك﴾؛ لأنه لو حذفه في الثاني لفاتت فائدة التقديم، وهي قطع الاشتراك بين العاملَيْن، إذ لو قال: إيّاك نعبدُ ونستعينُ لم يظهر أن التقدير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥].. أو إيّاك نعبدُ ونستغينك!! فإن قلت: إذا كان (نستعينك) مفيدًا لقطع الاشتراك بين العاملَيْن، فلم عدل عنه مع أنه أخصرُ، إلى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]؟

قلتُ: عدل إليه ليفيد الحصر بين العاملَيْن مع أنه أخصر.

فإن قلت: فلم قدّم العبادة على الاستعانة، مع أن الاستعانة مقدمة، لأن العبد يستعين اللّه على العبادة ليُعينه عليها؟قلتُ: الواوُ لا. تقتضي الترتيب، أو المرادُ بالعبادة التوحيدُ وهو مقدّم على الاستعانة على سائر العبادات.

٤- قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧].

كرّر (الصراط) لأنه المكان المهيأُ للسّلوك، فذكر في الأول المكان دون السّالك، فأعاده مع ذكره بقوله (صراط الّذين أنعمْت عليهم) إلخ... المصرّح فيه بما يخرج (اليهود) وهم المغضوب عليهم، و(النصارى) وهم الضالُّون.

فإن قلت: المراد (بالصراط المستقيم) الإسلامُ، أو القرآن، أو طريق الجنة كما قيل.. والمؤمنون مهتدون إلى ذلك، فما معنى طلب الهداية له، إذ فيه تحصيلُ الحاصل؟

قلتُ: معناه ثبّتْنا وأدمْنا عليه مع الاستقامة كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النّساء: الآية ١٣٦]، فإن قلت: ما فائدةُ دخول (لا) في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] مع أن الكلام بدونها كافٍ في المقصود؟قلتُ: فائدتُه توكيدُ النفي المفاد من ﴿غَيْرِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧].

بلاغة متشابه سُورة الفاتحة
في كتاب ملاك التأويل للإمام الغرناطي
سورة أم القرآن

(غ) وهى بجملتها من مغفلات صاحب كتاب الدرة وكذا ما بعد إلى الآية السادسة من سورة البقرة وهى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٥].

وقد تقدم أني أعلم على المغفل بعلامة (غ).

وأرجع إلى أم القرآن فأقول: هي أم القرآن وطلع الكتاب العزيز وأول سورة في الترتيب الثابت ومشروعية حمده سبحانه في ابتداء الأمور وختامها متقرر معلوم وقد تكرر في الكتاب العزيز افتتاحًا واختتاما، وأمر الله به نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسرَاء: الآية ١١١] والمتردد من صفة حمده حمده سبحانه في معظم الوارد منه في الكتاب العزيز ما افتتحت به أم القرآن من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] وما ورد في سورة الجاثية من قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٣٦]، ثم وقع إتباع المفتتح من السور بحمده جل وتعالى بأوصاف مختلفات مما انفرد به سبحانه فالسائل أن يسأل في ذلك أربعة سؤالات:

السؤال الأول: ما الفرق بين الوارد في أم القرآن وما جرى مجراها مما افتتح بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] وبين الواقع في سورة الجاثية من قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٣٦]؟.

السؤال الثاني: ما وجه افتتاح السور الخمس وهى: سورة أم القرآن و الأنعام والكهف وسبأ وفاطر بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] واختصاصها بذلك مع

تساوي السور كلها في استقلالها بأنفسها وامتياز بغضها من بعض؟

السؤال الثالث: ما وجه تخصيص كل آية منها بما ورد من أوصافه تعالى المتبع بها حمده؟ ففي أم القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: الآية ٢]، وفي الأنعام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١]، وفي الكهف: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: الآية ١]، وفي سبأ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢]، وفي فاطر: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤]، فهل هذا التخصيص لمناسبة تقتضيه حتى لا يلائم سورة منها من ذلك في غيرها؟

السؤال الرابع: ما وجه كون الوارد من حمده في الخواتم والانتهاءات لم يطرد فيه ما أطرد في افتتاح هذه السور من اختلاف التوابع بل جرى على أسلوب واحد فقال سبحانه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام: الآية ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: الآية ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فورد هذا مكتفي فيه بوصفه سبحانه بأنه رب العالمين.

والجواب عن السؤال الأول: بعد تمهيده وهو أن نقول أن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: الآية ٢] مبتدأ وخبر، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية: الآية ٣٦] وتأخر في هذه الثانية المبتدأ، والحاصل في الموضعين معنى واحد وهو حمده سبحانه بما هو أصله.

ومعلوم أن التقديم والتأخير فيما بين المبتدأ والخبر إذا لم يقع عارض مما يعرض في التركيب، ككون المبتدأ مما يلزم صدر الكلام، أو كون الخبر كذلك، فيلزم تقديم ما له الصدرية إلى غير ذلك من العوارض وهي كثيرة، فما لم يعرض عارض

يوجب لأحدهما التقديم أو التأخير فتقديم أيهما كان وتأخير الآخر عربي فصيح، إلا أن مرتبة المبتدأ التقديم ليبنى عليه الخبر، فتقديمه عند عدم العوارض اللفظية أولى كما في القرآن، وإذا وضح هذا فللسائل أن يقول: ما الموجب لتقديم الخبر على المبتدإ في سورة الجاثية؟ وهل كان يسوغ عكس الواقع؟ والجواب: أن العوارض الموجبة لتقديم ما مرتبته التأخير وتأخير ما مرتبته التقديم ليست منحصرة في جهة التركيب اللفظي، بل قد يعرض من جهة المعنى.

وتقدير الكلام ما يقتضي ذلك ويوجبه، وإذا تقرر هذا فنقول: إن قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية: الآية ٣٦]، ورد على تقدير الجواب بعد إرغام المكذب وقهره ووقوع الأمر مطابقًا لأخبار الرسل عليه السلام، وظهور ما كذب الجاحد به، فعند وضوح الأمر كأن قد قيل لمن الحمد ومن أهله؟ فكان الجواب على ذلك فقيل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية: الآية ٣٦] نظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ [غافر: الآية ١٦]؟ ثم قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨]، ألا ترى تلاق الآيتين فيما تقدمهما فالمتقدم في سورة غافر قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾.

فعند ظهور الأمر للعيان ومشاهدة ما قد كان خبرًا قيل لهم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: الآية ١٦].

وتقدم في سورة الجاثية قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الجاثية: الآية ٣٣] ... الآيات، وإنما ذلك يوم التلاقي والعرض عليه سبحانه فعند المعاينة وزوال الارتياب والشكوك كأن قد قيل لهم: لمن الحمد ومن أهله؟ فورد الجواب بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية: الآية ٣٦]... فالآية كالآية، والمقدر المدلول عليه كالمنطوق، والإيجاز مستدع للذلك. ولما تقدم ذكر الملك في آية غافر منطوقًا به لم يحتج إلى إعادة ذكره، فقيل: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨]، ولم يقل: فلله الملك لتقدم

ذكره، ولما كان الحمد في سورة الجاثية لم يتقدم ذكره، وإنما هو مقدر يدل عليه السابق لم يكن بد من الإفصاح به في الجواب فقيل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٣٦]، ولأجل ما قصد من تقريع المكذبين وتوبيخهم عند انقطاع الدعاوى ووضوح الأمر أتبع حمده تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٣٦] فذكر ربوبيته تعالى لما أبداه وأوجده من أعظم مخلوقاته وأبدع مصنوعاته، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غَافِر: الآية ٥٧] وأعاد ذكر ربوبيته مع كل من هذه المخلوقات العظام، المنصوبة للاستدلال بها والاعتبار بعظيم خلقها وما فيها، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٣٦] ثم أتبع بما يعم ربوبيته لذلك كله فقال: *!*﴿ رب العالمين ﴾.

والعالم ما سواه سبحانه من جميع مخلوقاته ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٣٧] أي: الانفراد بالعظمة والجلال والخلق والأمر، وهو العزيز الذي ذل كل مخلوق لعزته وقهره، الحكيم في أفعاله الذي جلت حكمته عن أن تدرك الأفهام غاياتها أو يحيط ذوو التفكر بنهاياتها فناسب ما ورد هنا من الإطالة بتكرر-ما ذكر- مقصود الآية، وذلك هو الجاري متى قصد تعنيف المشركين ومن عبد مع الله غيره وهو وارد في غير ما موضع من كتاب الله تعالى وتكرير لفظ ﴿رَبِّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٦] في قوله: ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ٣٦] مما يشهد لهذا الغرض من قصد تقريع الجاحدين، ولما كان الوارد في أم القرآن خطابًا للمؤونين وتعليما للمستجيبين مجردا عما قصد في آية الجاثية من توبيخ المكذبين ورد على ما قدم من الاكتفاء. وكل على ما يجب ويناسب.

والجواب عن السؤال الثاني: إن وجه تخصيص السور الخمس بما افتتحت به من حمده تعالى ما ذكر آنفا، أما أم القرآن فهي أول السور ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت فافتتاحها بحمده تعالى بين، أما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب الثنويه ومن قال بمثل قولهم ممن جعل الأفعال بين فاعلين إلى ما يرجع

إلى هذا وقد بسطت هذا في كتاب البرهان. وإذا كانت هذه السورة مشيرة إلى ما ذكر وانفردت بذلك فافتتاحها بحمده تعالى بين وفى الجواب عن السؤال الثاني لهذا زيادة بيان. وأما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف وذكر ذي القرنين حسبما ألفت يهود لسائلهم من كفار قريش وذلك مما لم يتكرر في القرآن فافتتحت بحمده تعالى وذلك بين وأما سورة سبأ فان قصة سبأ لم يرد فيها أيضًا في غير هذه السورة إلا الإيماء الوارد في قوله في سورة النمل: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: الآية ٢٢]، فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت ومن قصص داود وسليمان عليهما السلام وما منحهما الله ﷻ من تسخير الجبال والطير والجن وإلانة الحديد ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها افتتحها سبحانه بحمده وانفراده بملك السماوات ولأرض وما فيهما وانه أهل الحمد في الدنيا والآخرة وأما سورة فاطر ففيهما التعريف بخلق الملائكة عليهم السلام وجعلهم رسلا أولى أجنحة إلى خلق السماوات والأرض وإمساكهما أن تزولا وانفراده بذلك ولم يقع هذا التعريف في غيرها من سور القرآن فناسب هذه المقاصد المفردة التي لم ترد في غير هذه السور ما افتتحت به ولا يلزم على هذا اطراد ذلك في كل سورة انفردت بحكم أو تعريف ليس في غيرها بل جواز ذلك منسحب على الجميع واختصاص هذه السور بذلك واضح لانفرادها بما ذكرناه.

والجواب عن السؤال الثالث: أن أم القرآن لما كانت أول سورة ومطلع آياته وهو المبين لكل شيء والمعرف بوحدانيته سبحانه وانفراده بالخلق والاختراع وملك الدارين فناسب ذلك من أوصافه العلية ما يشير إلى ذلك كله من أنه رب العالمين وأنه الرحمن الرحيم وأنه ملك يوم الدين حتى تنقطع الدعاوى وتظهر الحقائق ويبرز ما كان خبرًا إلى العيان، وهذا واضح وأما مناسبة الوصف الوارد في سورة الأنعام فمن حيث ما وقع فيها من الإشارة إلى من عبد الأنوار وجعل الخير والشر من الظلمة فافتتحها تعالى بوصفه بأنه خالق السماوات والأرض وهى الأجرام

التي عنها الظلمات وفيها الأجرام النيرات وذكر تعالى انه خالق الأنوار وأعاد سبحانه ذكر ما فيه الدلالة البينة على بطلان مذهب من عبد النيرات أو شيئًا منها في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: الآية ٧٥] . . . الآيات، فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ [الأنعام: الآية ٧٦]، ثم قال عليه السلام على جهة الفرض لإقامة الحجة على قومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦]، ثم قال ذلك في الشمس والقمر مستدلا بتغيرها وتقلبها في الطلوع والغروب على أنها حادثة مربوبة مسخرة طائعة لموجدها المنزه عن سمات التغير والحدوث فقال عليه السلام عند ذلك لقومه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٨]، فأخبر عن حاله قبل هذا الاعتبار وبعده قال تعالى: ﴿حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٦٧]، وفي طي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٣٥] تنزيه عن عبادة النيرات وغيرها مما سواه تعالى وبأن من هذا كله ما افتتحت به السورة من انفراده تعالى بخلق السماوات والأرض والظلمات والنور فوضح التناسب والتلازم.

وأما سورة الكهف فإنها لما انطوت على التعريف بقصة أصحاب الكهف ولقاء موسى عليه السلام الخضر وما كان من أمرهما وذكر الرجل الطواف وبلوغه مطلع الشمس ومغربها وبنائه سد يأجوج ومأجوج وكل هذا إخبار بما لا مجال للعقل في إدراكه ولا تعرف حقيقته إلا بالوحي والإنباء بالصدق الذي لا عوج فيه ولا أمت ولا زيغ ناسب ذلك ذكر افتتاح السورة المعرفة بذلك الوحي المقطوع به قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَۜا ۝١﴾ [الكهف: الآية ١]، والتناسب في هذا أوضح من أن يتوقف فيه، وأما سورة سبأ فلما تضمنت ما منح سبحانه داود وسليمان من تسخير الجبال والطير وإلانة الحديد ناسب ذلك ما به افتتحت السورة من أن الكل ملكه وخلقه فهو المسخر لها والمتصرف في الكل بما يشاء، فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: الآية ١]،

وهذا واضح التناسب، وأما سورة فاطر فمناسبة صفه تعالى باختراع السماوات والأرض لما ذكره من خلق عامري السماوات من الملائكة وجعلهم رسلًا أولى أجنحة وإمساكه السماوات والأرض أن تزولا أبين شيء وأوضحه وليس شيء من هذه الأوصاف العلية بمناسب لغير موضعه كمناسبة موضعه الوارد فيه، فقد بأن مجيء كل واحد منهما في موضعه ملائمًا لما اتصل به، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الرابع: أن الخواتم والانتهاءات في السور والآيات لما كان غير مقصود بها ما قصد في المواضع المتقدمة وإنما هي مشروعية للمؤمنين عند خواتم أعمالهم وانقضاء أمورهم وقع الاكتفاء فيها بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ [الفاتحة: الآية ٢]، إذ في طي ذلك اعتراف للمؤمن وعلمه بانفراد موجده جل وتعالى بالخلق ولا أمر وملك الدارين، وأهليته ﷻ لكل ما تضمنت الأوصاف كلها في السور المذكورة، وليس موضع توبيخ ولا تقريع فناسب الاكتفاء بما ذكر، والله أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ اتفق القراء السبعة على الاتباع في هذه الصفات العلية وإجرائها على ما قبلها، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٧]، وفي سورة النساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: الآية ١٦٢]، اتفق القراء السبعة في هذه الصفات الأربع وهي قوله في آية البقرة: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٧]، وفي آية النساء: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: الآية ١٦٢] على القطع كما اتفقوا في أم القرآن في الأربع صفات الواردة فيها على الاتباع، وقد

اتفقت ثمانيتها في أنها صفات ثناء ومدح وتعظيم ثم اختلفوا فيما ذكرنا من الاتباع والقطع ولم يجروها مجرى واحدًا، وقد ترجم سيبويه ﷺ على ما ينصب على التعظيم والمدح، وقال في الترجمة بعد إشارتها إلى أن الوجه الانتصاب على ما ذكر من القطع بمقتضى مفهوم الترجمة فاتبع بأن قال: «فإن شئت جعلته صفة مجرى على الأول، وإن شئت قطعته فابتدأته»، واستشهد على القطع بما ورد من قول العرب: «الحمد لله الحميد هو والملك لله أهل الملك» فنصب الحميد ولهذا اتبع بالضمير المؤكد المستتر في الصفة ليظهر النصب في الصفتين، ثم اتبع بجواز الرفع والاتباع وأشار إلى أن القطع هو المختار في الباب إذا كان الموصوف معلوما والصفة المدح والثناء وهذا حاصل قوله وقول الجمهور وعليه ورد ما أورده من الآيات وما ذكر عن العرب من الإثبات، ثم إنه أشار إلى ضعف القطع في قوله في أثناء كلامه» وسمعت بعض العرب يقول الحمد لله رب العالمين-يعنى: بالنصب-فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية وعادته ﷺ التعبير بهذه العبارة عما هو دون غيره في القوة، من ذلك قوله في أول أبواب الاشتغال عقب بيت ذي الرمة:

إذا ابن أبي موسى بلال بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر

فقال عقبه: «والنصب عربي كثير والرفع أجود» ولما استشهد على اختياره النصب فيما تقدم قبله جملة فعلية ببيتي الربيع بن ضبع الفزاري:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أرد رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

بنصب الذئب وهو المختار أتبع بأن أن قال: «وقد يبتدأ فيحمل على ما مثل ما يحمل عليه وليس قبله منصوب وهو عربي وذلك قولك: لقيت زيدًا وعمرو كلمته، ولم يخالف أحد في أن النصب في هذا أفصح، وقال في مسألة: أنت عبد الله ضربته واختياره الرفع في عبد الله لما جعل الضمير المنفصل قبله مبتدأ وهو أنت فضعف

مقوي النصب في عبد الله وهو الاستفهام للفصل بالمبتدأ، فقال بعد اختياره الرفع لما ذكر: إلا أنك إن شئت نصبته كما نصبت زيدًا ضربته. ثم قال عربي جيد بعد ما قدم أن الرفع عنده أولى، وقال في مسألة: رأيت متاعك بعضه فوق بعض»، وجوز الرفع والنصب على معنيين فقال عقب ذلك والرفع في هذا أعرف، ثم قال بعد: وإن نصبت فهو عربي جيد، وقال بعد إنشاده:

إن على الله أن تبايعا تؤخذ كرهًا أو تجئ طائعًا

قال: فذا عربي حسن والأول أعرف وأكثر، فقد تبين من متعارف إطلاقه ما يريد بهذه العبارة وقد ترددت في كتابه كثيرا فحكايته هذه القراءة عن بعض العرب بعد إيثار القطع عن جميعهم؛ إذ لا يقتضى إطلاق كلامه غير ذلك وعليه فهمه الناس عنه وجرى عليه كلام جميعهم اعتمادًا على تلقيه من العرب ثم حكى ما يعارض ما تمهد من ذلك بما ذكر من هذه القراءة، فهذا مع سؤاله يونس عن هذه القراءة وجواب يونس بأنها عربية، وقد بينا مراده بهذه العبارة وقول سيبويه في إخباره عن قول يونس: «فزعم» حاصل من ذلك كله ضعف القطع في هذه الصفة مع أنها مدح وتعظيم، فالوجه على ما تأصل فيما قدمنا قطعها بتضعيف هذه القراءة معارض، لما اتفقوا عليه فهو مما أشكل ولم أر من تعرض له من نحوي ولا مفسر إلا بما لا يصح.

وقد أطنب أبو الفضل بن الخطيب [الرازى] رحمه الله في التفسير المنسوب إليه، فيما أورد في تفسير الفاتحة وما تعرض لهذا بشيء وكذلك غيره من النحويين والمفسرين إلا من قال إن القطع في هذه القراءة هو الوجه وإياه أراد سيبويه وإن جواب يونس بقوله: «عربية» إنما يريد إنها فصيحة كالمثل المذكور معها وهذا خطأ بين، ومن أمعن النظر في الكلام يراه من هذا.

وقد زعم بعض من عاصرناه من النحويين أن سيبويه إنما قصد بما حكاه عن

بعض العرب من هذه القراءة فسأل يونس عنها الرد على من قال: إن القطع لا يكون إلا بعد اتباع، فهذا أيضًا فاسد إذ لم يتقدم من كلام سيبويه رحمه الله ما يبني عليه هذا لا في الترجمة ولا في المثل ولا فيما أنشده من قول الأخطل:

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا أبدى التواجد يوم باسل ذكر
الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر

ومهلهل:

وللقد خبطن بيوت يشكر خبطه أخوالنا وهم بنو الأعمام

ولا تعرض له إلا بعد ما ذكر بعض ما سمعه من قراءة بعضهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ [الفاتحة: الآية ٢] بالنصب وسؤال يونس عنها وبناء الباب على ما تقدم وتعقيبه بما به اتبع الترجمة وكل ذلك جار على ما فهمه الجماعة من اختيار القطع وان لم يتقدم اتباع، ثم إن القطع قبل الاتباع قد تحصل مما أورده من المثالين المسموعين والآيات وما أنشده قبل الاتباع وبعده من غير تفصيل في الحالين وذلك كله يقتضي استواء الحكم ما لم يكن الموصوف يفتقر إلى زيادة بيان، فإنه قد يحسن إذ ذاك بيان، ولما لم يقع فيما صدر به سيبويه الباب إلا ما هو معلوم غير محتاج إلى زيادة بيان وإذا ثبت هذا ولم تقع إشارة إلى ما زعم هذا القائل من هذا التفصيل فلا يتوقف القطع على الشرطين المذكورين: من كون الصفة للثناء والتعظيم، وكون الموصوف معلومًا، وهل يطرد هذا الحكم في كل ما وجد فيه أم يتفصل؟ هذا حكم آخر وسيستوفى بعد إن شاء الله، أما تقدم الاتباع فليس بشرط وإنما تعلق القائل بذلك مما ذكر أبو طاهر في باب شاذ مما يشير إلى أنه قول قائل من النحويين، إلا انه لم يتعرض لكلام سيبويه وإنما الخطأ في نسبة ذلك لسيبويه مع فساد هذا القول في نفسه، فإذا تقرر ما أصلناه من أن الوجه فيما الصفة فيه مدح أو ذم والموصوف معلوم قطع الصفة أنه الأفصح، فللسائل أن يسأل عن وجه ضعف النصب في

القراءة المذكورة مع حصول شرط القطع؟ ولم اتفق القراء على خلاف ما تمهد انه الوجه؟

والجواب عن ذلك -والله أعلم- أن اختيار القطع بعد حصول شرطية مطرد ما لم تكن الصفة خاصة بما جرت عليه لا تليق بغيره ولا يتصف بها سواه ولا شك أن هذا الضرب قليل جدًا، فلذلك لم يفصح سيبويه رحمه الله باشتراطه واكتفى بالوارد مما ذكره عن بعض العرب فإذا كانت الصفة مما لا يشارك فيها الموصوف غيره وكانت مختصة بمن جرت عليه فالوجه فيها الاتباع ويطرد ذلك في صفات الله سبحانه مما لا يتصف بع غيره، وأوضح ذلك هذه الصفة العلية إلا ترى أن ربوبيته تعالى للعالم بأسره لا تنبغي لغيره ولا يتصف بها سواه فلما كانت على ما ذكرته لم يكن فيها القطع والمراد السماع على هذا كاف في الدلالة فمنه الآية المذكورة ومنه قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ لما كان وصفه تعالى بغافر الذنب وما بعده لا يليق بغيره تعالى لم يكن إلا الاتباع، والاتباع لا يكون بعد قطع فلزم الاتباع في الكل، ومن هذا قول عمرو بن الجموح:

الحمد لله العلي المن الواهب الرزاق ديان الدين

وهذا مع تكرار الصفات وذلك من مسوغات القطع على صفة ما، وعند بعضهم من غير تقييد بصفة، وأما الاتباع فيما لم يقع فيه إلا صفتان من صفاته تعالى فأكثر من أن يحصى، فهذا شاهد السماع وهو كاف وله وجه من القياس وهو شبيه بالوارد في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾، ثم قال تعالى بعد: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾، فورد في هذه الجمل الأربع الفصل بالضمير المرفوع بين اسم إن وخبرها ليحرز بمفهومه نفى الاتصاف عن غيره تعالى بهذه الأخبار وكان الكلام

في قوة أن لو قيل: وأنه هو لا غيره وذلك أنه لما كان يمكن المباهت الجاحد ادعاء هذه الأوصاف لنفسه مباهتًا ومغالطًا كقول طاغية ابراهيم عليه السلام جوابًا لإبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨] فقال الطاغية مباهتًا ومخيلًا لأمثاله: أنا أحيي وأميت فأوهم بفعلة يطلق عليها هذه العبارة مجازًا بقتله من لم يستوجب القتل وتسريحه من وجب عليه القتل وهذا جارٍ في هذه الجمل المفصول فيها بالضمير فأتى به لما ذكر ولم يرد هذا الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: الآية ٤٥]؛ لأن ذلك مما لا يتعاطاه أحد لا حقيقة ولا مجازًا وبالاعتراف بذلك أخبر تعالى عن عتاة الكفار العرب وغيرهم حين قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: الآية ٨٧] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم: الآية ٥٠] لكون إهلاك القرون المكذبة مما لا يمكن أن ينسب لغير الله تعالى فلم يعرض في هذا مفهوم يحتاج التحرز منه لم يرد هنا فصل بضمير كما ورد فيما تقدم.

وإذا تأملت القطع في صفات الثناء والمدح وجدت ما مهدناه جاريًا على هذا، إلا ترى أنك إذا قلت: مررت بزيد العلم، فاتبعت الصفة لموصوفها مع كون الصفة صالحة لمن أجريت عليه ولغيره لم يكن ذلك ليدفع غير زيد عن مشاركته في صفته التي أجريتها عليه، فإذا قطعت قلت: مرت بزيد العلم هو، برفع الصفة على تقدير مبتدأ أي هو العلم أحرز ذلك الضمير المبتدأ بمفهومه أن غير زيد ليس بعالم أو أنه ليس كزيد وكأنك قلت هو العلم لا غيره كما في الآي المتقدمة، وكذا القطع في النصب من غير فرق، فإذا كانت الصفة لم تخص من جرت عليه لم يكن هناك مفهوم محرز منه فلم يكن القطع ليحرز هنا فائدة فلم يحتاج إليه وعليه ورد السماع كما تقدم فقد تعاضد السماع والقياس كما بينا ووجب الاتباع في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: الآية ٢]، وهو مما لم يتعرض له أحد بما يخاص مع لزوم الجواب عنه.

الآية الثالثة: من أم القرآن (غ) قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] فيها سؤال واحد وهو أن يقول القائل: ما وجه الفصل بهاتين الصفتين العليتين من قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] بين الصفتين المقتضيتين ملك الدارين بما فيها وهما ﴿*!*الرحمن الرحيمالرحمن الرحيمرب العالمين * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ من حيث أن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] يتضمن أن لا رب سواه فهو ملك الكل فقد كان المطابق لهذا إيصال ملك يوم الدين به حتى يقع وصفه بملك الدارين جميعًا وبالانفراد فيهما بالخلق والأمر والحكم كمت هو وكما ورد في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٠].

فالجاري مع هذا أن لو قيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * *!*ملك يوم الدين﴾ والفصل بالرحمن الرحيم مما يكسر هذا الغرض فما وجه ذلك؟

والجواب عن ذلك: أنه تعالى خصص هذه الأمة بخصائص الاعتناء والتكريم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠]، وجعل نبينا ﷺ سيد ولد آدم والمصطفى من كافة الخلق والتابع يشرف بشرف المتبوع وقد خاطبه تعالى بخطاب الرحمة والتلطف والاعتناء فقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التَّوبَة: الآية ٤٣] فقدم العفو بين يدي ما صورته العتب لئلا ينصدع قلبه ﷺ فكذلك تلطف لعباده من أمة هذا النبي الكريك وأمنهم من خوفهم وإشفاقهم من عرض أعمالهم وحسابهم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، لما كان تعالى قد وصف هذا اليوم بأنه يوم تشخص فيه الأبصار ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحَجّ: الآية ٢]، قدم هنا تعريفهم بأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] وأنه ملك ذلك اليوم فأنس هذه الأمة كما أنس نبيهم وذلك أبين شيء.

الآية الرابعة: (غ) قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] وفى قراءة عاصم والكسائي (مالك يوم الدين) وفى سورة آل عمران: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٦] ولم يقرأ بغيره، وفى سورة الناس: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النَّاس: الآية ٢]، ولم يقرأ أيضًا بغيره، ومدار الآيات الثلاث على تعريف العباد بأنه سبحانه الملك المالك ثم ورد فيها من الاختلاف ما ذكر، فللسائل أن يسأل فيقول: ما وجه هذا الاختلاف؟ وهل اختصاص آية أم القرآن بالقراءتين لموجب يخصها مع اتحاد المقصود في الآيات الثلاث من انه سبحانه المنفرد بملك الكل وإيجادهم وانه الملك المالك؟ أم ذلك لاختلاف المقاصد؟

والجواب: إن الآيات الثلاث حاصل منها ما ذكر انه مقصود من انه سبحانه ملك مالك إما آية الفاتحة فبإفصاح القراءتين، وأما آية آل عمران فلفظ الملك المضاف إليه مالك في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٦] يفهم إنه الملك لأن الملك من له الملك فأفهم لفظ الملك المضاف إليه مالك انه ملك فحصل الاكتفاء بهذا وأفهمت الآية الأمرين، وأما آية الناس فقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: الآية ١] مغن عن الإفصاح بمالك الناس لأن الرب المالك فكأن قد قيل: قل أعوذ بمالك الناس ملك الناس فاقتضى الإيجاز الاتصال ووحدة الكلام من حيث المعنى أما آية الفاتحة فقوله فيها: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] آية انفردت عما قبلها بالتعريف بما لم تعرف به الآية التي قبلها من التنصيص على أنه ملك يوم الحساب فمصرف الكلامين في الآيتين إلى مقصودين وذلك أن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] كلام مصرفه بحسب التفصيل الوارد هنا إلى حال الدنيا مع انسحاب معناه على الدارين ولكن ورد الكلام مفصلا فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢]، فمصرف هذا بسبقية المفهوم وتقييد ما بعده وما يقتضيه التناظر والتقابل إلى حال الدنيا ثم قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] فمصرف هذا إلى الآخرة فهذا في

التفصيل كقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: الآية ٧٠] فلم يكن ما مصرفه إلى حال الدنيا ليقع به الاستغناء عما مصرفه إلى حال الآخرة فلم يكن بد من الإفصاح بالصفتين فورد ذلك في القراءتين، بخلاف ما في آية آل عمران وآية الناس فإن الآيتين من حيث الاتصال في المعنى في قوة آية واحدة، والكلام فيهما مطلق غير مقيد فيتناول بحسب إطلاقه الحكم في الدارين مع أنه كلام واحد.

فان قلت: إذا كان قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤] بحسب المصرف كما تقدم آية انفردت وأين مقصدها الآية قبلها على ما تمهد فقد صارت آيتا أم القرآن بحسب مصرف كل آية منهما كآية آل عمران وآية الناس فيحتاج في كل واحدة منهما عل ما تمهد إلى ما يفهم انه سبحانه ملك مالك وقد حصل ذلك من الآيات الثلاث فما المفهم لذلك من قوله تعالى: *!*﴿ رب العالمين ﴾.

فالجواب انه مفهوم من عموم قوله تعالى: *!*﴿ رب العالمين ﴾ إذ لم يقع مثل هذا العموم والاستيفاء من هذه الآي في غير هذه، فإن لفظ العالمين يشمل كل مخلوق وإذا كان رب الكل ومالكهم فإن جميعهم تحت قهره وملكه فلا ملك لغيره سبحانه، فقد حصل من كل واحدة من هذه الآى الأربع انه سبحانه الملك المالك وتبين أنه لا يلائم الآية من أم القرآن إلا ما ورد فيها من القراءتين وان الآيات الآخر لو قرئت بالوجهين لكان تكرارًا فورد كل على ما يجب ولا يناسب خلافه والله أعلم.

* * *